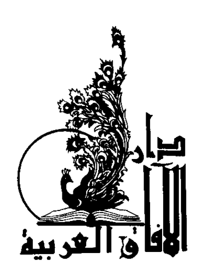
نساء حول الرسول
(١)

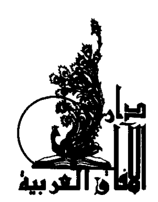
ذات النطاقين

أسماء بنت أبى بكر

مأمون غريب



الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٦٣٥ لسنة ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 977-279-281-8

إهداء

إلى عشاق البطولة والمثل العليا..

إلى عشاق الإيثار والتضحية والجهاد

إلى عشاق الأمومة فى أجمل ملابساتها

أسواق هذه الدراسة عن السيدة أسماء بنت أبى بكر الذى قال عنها أعظم رسل السماء.. وقد شقت نطاقها لتربط به فم جراب زاد الهجرة سوف يبدلها الله بنطاقها نطاقين فى الجنة

إلى كل محب للبطولة والشجاعة أقدم هذه الدراسة عن بنت الصديق، وزوجة الزبير بن العوام حوارى الرسول، وأخت عائشة رضى الله عنها وأم عبدالله بن الزبير الذى انتزع الخلافة من بنى أمية، واستقل بالحجاز والعراق ومصر ومعظم الشام.. ولولا بعض الظروف المعاكسة لكان واحدا من أعظم الخلفاء المسلمين.

إلى كل هؤلاء .. أسوق هذا الحديث .

مأمون غريب

أسـرة الصديـق

أســـرة الصديق

دعاني الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، تلك المواقف التي عاشت على الأجيال في خدمة الإسلام وبني الإسلام . . استوقفتني شجاعتها النادرة، يوم واجهت عدو الإسلام الأول أبا جهل عندما طرق عليها الباب بعد أن عرف أن والدها هاجر مع رسول الله ﷺ وعرف الخطر المحدق بمكة وأهل الشرك فيها إذا نجحت هجرة الرسول الكريم . . فلن يعود لزعماء الكفر فيها القدرة على الحجر على انتشار الإسلام . . وقد واجهته أسماء . . ورغم أنه ضربها على وجهها حتى سقط العقد من أذنيها إلا أنها صمدت، ولم تبح بشيء لعدو الإسلام . . بل أنها كانت تحمل الزاد لرسول الله ولوالدها في غار ثور في الليالي الثلاثة التي قضاها الرسول وصحبه فيه . . لم تبح لأحد حتى ولاجدها الذي جاء ليطمئن عليها، وهل ترك لها والدها مالا، أم أخذ كل مالها وتركهم وحدهم بلا مال!

ولكنها طمأنت جدها بأن وضعت بعض الأحجار في ثوب وجعلته يتحسسه وهو يظنه المال الذي تركه الصديق . . كانت اسماء قد ولدت في السنة السابعة والعشرين قبل الهجرة كما يقول بعض الرواة، وأنها أسلمت وهي في الخامسة عشر من عمرها . . فتاة مكتملة العقل . . شجاعة القلب، تربت على قيم والدها أبي بكر الصديق.

وقد أحببت فى أسماء هذه الشجاعة التى اتضحت فى كل مواقفها . . سواء وهى تذهب بالزاد إلى الرسول وصحبة فى الغار . . أو عندما امتدت بها الأيام . . وشاهدت ابنها الأبى الشجاع عبدالله بن الزبير ، وقد حوصر فى أخر أيامه على يد الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكيف شجعت أبنها على القتال ، وهى تعلم تماما أنه سوف يقتل ، ولكن حرصها على المبادئ . . لا المصالح الوقتية دفعها أن تحض ولدها على القتال حتى الموت ، رغم أنها كانت قد اقتربت من المائة عام ، ورغم أن ابنها كان شيخا تجاوز السبعين من عمره!

تجسدت فيها كل قيم ومُثل والدها الصديق . . هذه الشخصية المبهرة . . بل شديدة الإبهار . . فهو الرجل الضعيف اليدن ، يحمل نفسا تواقة إلى ما عند الله . . لا تخشى فى الحق لومة لائم . . آزر الرسول فى حياته حتى أظهر الله الإسلام . . وانتشر فى شبه الجزيرة العربية ، وصدقه إذ كذبه الناس ، وآزره بنفسه وماله . . وكان نعم المستشار له . . الحريص على الرسالة والرسول . . وكان أصغر من الرسول بسنتين وأربعة أشهر ، وعندما أسلم كان فى السابعة والثلاثين أو ثمان وثلانين . . وكان أول من أسلم من الرجال وما أكثر ما روى من أحاديث يتضح فيها حب الرسول عليه الصلاة والسلام له ، فيها ما روى عن ابن عباس قول رسول الله ﷺ .

ما أحد أعظم من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله ، وأنكحنى ابنته .

وروى عن الإمام على كرم الله وجهه قوله :

كنت عند رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر . . فقال : «يا على هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والأخرين إلا النبين والمرسلين» .

وقد أدهشني وأنا أقرأ سيرة الصديق في مختلف المراجع القديمة والحديثه . . مواقفه ، مما جعلني أمام واحد من أعظم أبطال التاريخ . .

فقد بدأت عبقريته واضحة المعالم والقسمات أثناء انعقاد مؤتمر السقيفة . . سقيفة بن ساعدة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومحاولة الأنصار أن يبايعوا سعد بن عبادة خليفة للرسول . . وتصدى لهذه المحاولة أبو بكر الصديق ، والفاروق عمر بن الخطاب ، وأبو عبيده الجراح . . هنا ظهرت عبقرية الصديق ، وهدوء أعصابه . . وقوة منطقة . . حتى انتهى الأمر بمبايعته ليكون أول خليفة في الإسلام .

ووضح هدوء أعصابه قبل ذلك عندما مضى رسول الله إلى جوار ربه . . فما كادت الأصوات الحزينة تنبعث من بيت رسول الله لتعلن هذا الخبر الحزين . . خبر رحيله إلى أكرم جوار . . حتى ساد المدينة حزن عميق . . البعض لم يصدق أن رسول الله مات وعلى رأسهم عمر بن الخطاب . والبعض الآخر لم يعد يتصور الحياة بدون رسول الله . . كيف تكون الحياة بعد رحيل من ملأ الحياة بالحيوية والحياة . . كان نورا يسير بينهم . . قرآنا يمشي على الأرض . . سلوكيات بالغة الروعة والجمال والجلال . .

وجاء الصديق من دارة في (السنح) فقبل رسول الله ، وقال كلمة الخالدة .

ـ طبت حيا وميتا يا رسول الله .

وصعد المنبر . . وأعاد للنفوس توازنها . . فقد انتقل الرسول إلى جوار ربه تاركا كتاب الله الخالد وسنته العطرة . . وسوف يعيش في العقول والقلوب أبد الدهر . . إلى أن تقوم الساعة قال الصدِّيق : «من كان يعبد

محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله . فإن الله حى لا يموت» .

إيمان عميق . . راسخ رسوخ الجبال .

لقد كان أعظم رسل الله يعرف أى معدن من الرجال هو معدن الصديق ، فقد قال لأصحابه «يا أيها الناس احفظونى فى أبى بكر» .

لقد صاحب الرسول الكريم فى الهجرة . . صاحبه . . وهو يعلم كم يعز على رسول الله أن يترك مكة التى عاش فيها طفلا وصبيا وشابا إلى أن جاءه وحى السماء . .

وقد تلفت الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يودع مكة وقال كلمته الجميلة المؤثرة .

«إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منها ما خرجت» .

وفى الغار . . سدَّ الصديق أحد ثقوب الغار برجله فلدغه ثعبان ، وتحمل الألام ، حتى شعر النبى بمعاناته وقد انحدرت من عيونه الدموع فعالجه رسول الله ﷺ .

وعندما سمع الصديق همهمات من جاءوا لمطاردتهم من أهل مكة واقترابهم من الغار خاف على رسول الله ، غير أن الرسول ﷺ قال له : يا أبا بكر . . لا تخف إن الله معنا . . وماظنك باثنين الله ثالثهما» .

كان شديد الحب لرسول الله .

وكان رسول الله شديد الحب له .

حتى أنه ضرب ابنته عائشة لأنه تصور أنها تجاوزت حدودها على الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال عائشة : كان بيني وبين رسول الله ﷺ كلام . .

فقال : ومن ترضين أن يكون بيني وبينك؟ . . أترضين بأبي عبيدة الجراح؟

قلت : لا . . ذلك رجل هين لين يقضي لك .

قال : أترضين بأبيك .

قلت : نعم .

فأرسل إلى أبي بكر فجاء .

فقال : أقصص !

فقلت : بل أقصص أنت .

فقال : هي كذا . . وكذا .

فقلت : أقصد ! !

فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يابنت أم رومان أقصد؟

من يقصد إذا لم يقصد رسول الله؟

فجعل الدم يسيل من أنفي .

وقال رسول الله ﷺ : إنا لم ترد هذا .

وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه .

إن الصديق لحبه لرسول الله ضرب ابنته عندما قالت للرسول : اقصد . . والرسول من حبة لأبي بكر وعائشة . . تعاطف مع عائشة بنت الصديق ، ومسح الدم من ثيابها .

أسرة الصديق . . تربت على قيم ومبادئ الإسلام، وأخلاقيات الصديق .

وقد كان الرسول يتحمل غيرتها على الرسول، حتى أنها غضبت ذات يوم لأن الرسول مدح زوجته الراحلة خديجة بنت خويلد قالت له مرة :

ـ ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلّك الله خيرا منها .

فقال لها الرسول ﷺ : والله ما أبدلنى خيرا منها . . آمنت بى حين كذبنى الناس، واستنى بمالها حين حرمنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام مثالا للوفاء . . إنه لم ينس قط السيدة خديجة . . ومواقفها معه . . قبل الرسالة وبعدها .

وعندما عرفت عائشة بذلك . . أمسكت أن تتحدث عنها خوفا من غضب الرسول .

. . وقد علَّم الصديق أولاده عدم المباهاة والفخر . .

ومن هذا ما ترويه السيدة عائشة قالت :

وليست ثيابى فطففت انظر إلى ذيلى وأنا أمشى فى البيت والتفت إلى ثيابى وذيلى، فدخل على أبو بكر فقال :

ـ يا عائشة . . أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن .

قلت : ولم ذاك ؟

قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيامقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينه؟

فنزعته فتصدقت به .

قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك .

وعائشة أمها (أم رومان) .

والأستاذ العقاد يقول أنه لا يعرف على التحقيق فى أى سنة ولدت عائشة رضى الله عنها ، ولكن أقرب الأقول إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت فى السنة الحادية عشر أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول .

ويقول الأستاذ العقاد عنها أيضا . .

فحسبها أنها قدروت للنبى عليه الصلاة والسلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والغطات الخلقية والأداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة . بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ، ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعى وتحسن الخفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحيط فى فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات .

ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات .

قال أبو موسى الأشعرى :

ما أشكل علينا أمر تسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علما فيه .

وقال عطار بن أبى رباح :

كانت أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا فى العامة.

وقال سردق الهمذانى.

رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض.

وقال عروة بن الزبير:

ـ ما رأيت أحد أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ومن الأحاديث التى ترفع إلى النبى أنه قال:

ـ خذوا شطر دينكم من هذى الحميراء.. وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح.. ولكن الحق الذى لامراء به أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر دينهم من أحاديث عائشة عن تروجيها المحبوب عليه السلام.

وما أكثر الصور التى تعطى مؤشرا لقلب الصديق الذى يقبض رقة ورحمة وحنانا.

كما أنها تعطى صورة لهذه الأسرة التى كان يرعاها الصديق.. والتى أنجبت عائشة أم المؤمنين.. وأحب نساء النبى عليه الصلاة والسلام إلى قلبه.

وأنجبت محمد وعبدالرحمن وعبدالله ونقف عند إحدى هذه الصور.

صور ابنه عبدالله وموقف والده منه عندما رآه متيما فى الحب، وغرق فيه إلى أذنيه.

وأنساه هذا الحب ما كان ينبغى ألا يقصر فيه كاقامته للصلاة والجهاد فى سبيل الله.

شاهد الصديق ابنه عبدالله.. وقد هام حبا بعاتكه بنت زيد، الذى

أستشهد زوجها جعفر بن أبى طالب فى معركة مؤته . وأحبها عبدالله وتزوجها .

وكان شديد الولع بها فسيطرت عليه بهذا الحب . وحزن نفس الصديق أن ابنه عبدالرحمن لبى نداء الجهاد فخرج فى جيش خالد بن الوليد . . بينما آثر عبدالله أن يظل بجوار زوجته التى كان يحبها حبا جما . نسى نفسه .

ومعظم وقته يقضيه فى البيت .

وتأثرت تجارته .

وحز فى نفس الصديق أكثر أن ابنه لم يخرج لصلاة الجمعة . . ولم يستمع عبدالله لنصائح والده . . بأن يرعى معاشه . . ويوفق بين حبه وحياته .

ولكن نصائح الصديق ذهبت أدراج الرياح . . فما كان من أبى بكر أن طلب منه أن يطلق هذه الزوجة حتى يمكنه أن يعى حقائق الأشياء ، وأن يضع أقدامه على أرض الواقع بدلا أن يعيش فى خيالات الحب وأوهامة !

فقد كان قبل الزواج بها يعيش حياته . . ويعمل . . ويؤدى الفرائض .

وأطاع الولد أباه .

ولكن قلبه كان لا يعرف إلا هذا الحب . . وامتلأ قلبه بالحزن والألم .

إنه لا يستطيع أن يفارق عاتكه التى جعلت الحياة فى عينية فردوسا يانعا ، وجعلت لكل شىء فى حياته طعما . .

وهو فى نفس الوقت لا يستطيع أن يعصى أوامر والده . .

وبينما كان أبو بكر يصلى على سطح منزله، سمع صوت أبنه يشكو أحزانه وحبه فى شعر رائع ومؤثر إنه ينشد فى أسى، وتغنى بهذه الأبيات .

أعـاتـك لا أنـسـاك مـاذر شـارق
ومـا نـاح قـمـرى الحـمـام المـطـوق
أعـاتـك قـلـبـى كـل يـوم ولـيـلـة
لـديك بمـا تـخـفـى الـنـفـوس معـلـق
لـهـا خـلـق جـزل ورأى ومـنـطـق
وخـلـق مـصـون فـى حـيـاء ومـصـدق
فـإن أر مـثـلـى طـلـق الـيـوم مـثـلـهـا
ولا مـثـلـهـا فـى غـيـر شـىء يـطـلـق

لم يطق الصديق أن يرى ابنه يعيش هكذا حزينا . . لا يستطيع أن ينسى حبه . . ولا يستطيع أن يسدل عليه أستار النسيان . . وأن هذا الحب فوق طاقتة . . فاستدعى ابنه وطلب منه أن يعيد إليه زوجته .

وفرح عبدالله فرحا شديدا، وأعتق بهذه المناسبة غلامة أيمن .

وأسرع إلى زوجته وهو ينشد :

أعـاتـك قـد طـلـقـت فـى غـيـر ريـبـة
وروجـعـت لـلأمـر الـذى هـو كـان
كـذلـك أمـر الـلـه غـاد ورائـح
عـلـى الـنـاس فـيـه ألـفـة وتـبـايـن

وما زال قلبى للتفرق طائرا

وقلبى لما قد قرب الله ساكن

ليهنك أنى لا أرى فيه سخطة

وأنك قد تمت عليك المحاسن

فإنك ممَن زين الله وجهه

وليس لوجه زانه الله شائن

ورجعت إلى عبدالله الرقيق المشاعر زوجته وشعر بنفسه يحتض السعادة والهناء.

وكان الجرح الذى أصيب به (عبدالله) عندما كان يحارب مع المسلمين فى هوازن قد عاوده من جديد. ثم اشتد عليه المرض، ومضى إلى جوار ربه..

وشعرت زوجته عاتكه بحزن عميق لهذا الإنسان الرقيق الذى غادر الدنيا، وكانت أيامها معه من أسعد الأيام..

فقد كان يحبها حبا شديدا، حتى أنها رثته فى قصيدة.. قالت فيها:

فآليت لاتنفك عينى سخينة

عليك ولاينفك جلدى أغبرا

لدى الدهر ما غنت حمامة أيكه

وما طرد الليل الصباح المنورا

وذهب أبو بكر بودعه الوداع الأخير.. وفاضت عيناه بالدمع وهو يوسد (عبدالله) التراب.. ذلك الشاعر الرقيق الحس والوجدان.

كان الصديق عفيف النفس . . عفيف اللسان . . زاهدا فى الحياة .

ومعروف أن أبا بكر تزوج فى الجاهلية زوجتين .

تزوج فتيله بنت عبد العزى وأنجبت منه (عبدالله) وأسماء وتزوج أم رومان بنت عامر وأنجبت منه عبدالرحمن وعائشة .

وفى الإسلام تزوج إسماء بنت عميس التى أنجب منها محمد بن أبى بكر ، كما تزوج فى الإسلام أيضا حبيبة بنت خارجة التى أنجب منها أم كلثوم .

وما أكثر الأدوار التى لعبها أبناؤه . متأثرين بهذه التربية التى ربَّاها عليهم والدهم الصديق . .

هذا الإنسان الشديد الزهد فى الدنيا .

الشديد الوطأة على أعداء الإسلام . .

المقاتل الماهر عندما يحتاج الأمر إلى المواجهة والقتال . .

والسياسى البارع عندما يحتاج الأمر إلى لين السياسة ودهاء الساسة .

* * *

وعندما انتقل الصديق إلى جوار ربه . . شعر المسلمون بفداحة الفراغ الذى أحدثه الصديق فى حياة الناس ، إلا أن الفاروق عمر بن الخطاب ، استطاع بعدله وتواضعه وعبقريته السياسية أن يملأ مكان الصديق ، واستطاع أن يواجه أعظم قوى عصره . . الفرس والرومان .

ووجه المسلمين نحو الفتوحات الإسلامية الكبرى . . فى نفس الوقت الذى كان يوسهم بالشده حينا ، وباللين حينا آخر . . حتى استطاع أن يكون امبراطورية إسلامية كبرى بقضائه على دولة الفرس ، وانتزاع مصر والشام وفلسطين من الامبراطورية الرومانية . .

وفى عهد عمر لم نر تدخلاً فى السياسة من أسرة الصديق .

وقد ظهر هذا الدور عند بداية الفتنة الكبرى فى عصر عثمان رضى الله عنه . .

فقد كانت عائشة معارضة لسياسة عثمان . . بل أنها خرجت للحج والثوار يملأون المدينة . . ومن هنا فقد كان غريبا أن تخرج للمطالبة بدم عثمان!

ولكن خروجها على الإمام على كرم الله وجهه، كان بسبب موقفه منها فى حادثة الإفك . . عندما قال للرسول عليه الصلاة والسلام .

ـ تزوج فالنساء كثير . . !

وهناك من المؤرخين من يضيف سببا أخر لغضبها على الإمام لأن الإمام لم يبايع أباها إلا بعد شهور من مبايعة الناس . وبعد أن ماتت السيدة فاطمة الزهراء .

مهما يكن من شىء . .

فقد وقفت عائشة ضد الإمام على . . بل وخرجت محرضة على قتاله مع طلحة والزبير، وقتل فى هذه المعركة (معركة الجمل) . . أو فى هذه المأساة خمسة عشر ألف، كما قتل طلحة والزبير . . وأمر الإمام على أن يعقر جمل عائشة حيث كان أتباعها يستميتون فى الدفاع عنها .

وانتصر الإمام وتقدم إلى هودج أم المؤمنين عائشة وهو يقول والأسى يعتصر قلبه .

ـ يا حميراء . . رسول الله أمرك بذلك؟

ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك؟!

والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم، وأبرزوك .

وكان يحارب مع الإمام على أخوها محمد بن أبى بكر، فأمره الإمام أن يعود بها إلى المدينة آمنه مكرمه، وأعطاها منحه من المال (١٢ ألف دينار).

وندمت السيدة عائشة من موقفها من الإمام على واعتزلت السياسة طوال حياتها الباقية، وندمت ندما شديدا على تورطها فى هذا القتال الذى ذهب ضحيته الألوف من الضحايا!

وروى أنها عندما حضرتها الوفاة بكت . .

فقالوا لها كيف تبكين وأنت زوجة رسول الله وبنت أبى بكر؟ فقالت:

إن يوم الجمل معترض فى حلقى . . ليتنى كنت نسيا منسيا.

* * *

ولم يكن لاسماء بنت أبى بكر موقفا سياسيا طوال فترة الخلفاء الراشدين . . ولكن برز هذا الدور بروزا واضحا، فى موقفها مع ابنها عبدالله، عندما انتزع الحجاز ومصر ومعظم أجزاء الامبراطورية الأموية منهم، وأصبح خليفة، ثم استطاع عبدالملك بن مروان أن يرسل إليه جيشا من الشام بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى حاصر مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، ولم يراع شيوخا أو أطفالا أو نساء، ولا عرف أبسط قواعد ومبادئ الإسلام الشريفة فى الحروب . . وسط هذا الجو البالغ الصعوبة، برز دور اسماء بنت أبى بكر . . الذى اقتربت من المائة من العمر . . لقد عادت أسماء التى عرفناها يوم كانت تحمل الزاد للرسول ولأبيها فى غار ثور وهو فى طريقة إلى دار الهجرة . . الفتاة الباسلة المقاتلة . . التى لا تخشى ظلمة الليل وسط جبال مكة، يحملها إيمانها العميق أن تكون فدائية فى سبيل الإسلام.

عادت اسمها فى سنها الكبيرة تلك إلى أيام أمجادها عندما كانت تذود شابة تذو عن الإسلام ونبى الإسلام فإذا بها تنصح ابنها أن يكون رجل المبادئ. . وأن يموت فى سبيل ما يعتقد أنه الصواب. . وهذا ما سوف نراه فى هذا الموقف الشجاع الذى حفظه التاريخ. . كفارسة. . وصاحبة مبادئ. . لاتخشى وعد أو وعيد. . وتحرض ابنها على الاستشهاد. . ولم تحرضه على المناورة والسياسة حتى يضمن حياته بعد أن هرب منه رفاق السلاح. . وبعد أن تخلى عنه حتى أقرب الناس إليه. . حرصا على حياتهم، وتملقا وزلفى لسلطان بنى أميه.

* * *

أسرة الصديق. . هى إذن هذه الأسرة التى يتضح من خلالها الأثر الهائل الذى أحدثه فيهم أبوبكر الصديق قبل إسلامه بمروءته. . وما طبع عليه من طيبة القلب، ورقة المشاعر، وبعد الإسلام بما امتصه من قيم الإسلام وشرائعه وعقائده، وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من سمو روحى، ورؤية شاملة للحياة وما وراء الحياة:

هذه الشخصية الفذة الذى حرر الكثير من الرقاب التى تعذبت فى سبيل إيمانها بالدين الحنيف، لا يبتغى من وراء ذلك إلا ثواب الله. . وكان من الذين حررهم (بلال بن رباح) العبد الحبشى، الذى قاوم صلف مكة وجبروتها بترديده تحت وهج حرارة الظهيرة وهو ملقى على رمال مكة: أحد. . أحد. . أحد أحد. . حرّره الصديق بخمس أوقيات من الذهب. . حتى أن سيده السابق أميه بن خلف قال لأبى بكر ولو أبيتم إلا أوقية واحدة لأخذته فقال له الصديق.

ـ لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته.

هذا المشهد الخالد الذى يوضع فى ميزان الصديق يدل على عمق إيمان الصديق، وحبه لأخوته فى الإسلام، وتحرير رقابهم، لأن قيمة الإنسان فى ظل العقيدة الإسلامية لاتوزن باللون، والجاه والثراء، ولكن توزن بالتقوى، وكان بلال تقيا ورعا . . لقد استمع إليه الصديق بعد أن حرره من الرق وهو يقول له :

ـ إن كنت اشتريتنى لنفسك فامسكنى، وإن كنت إنما اشتريتنى لله عزوجل فدعنى لعمل الله عز وجل.

فقال له أبو بكر :

إنما اشتريتك لله عز وجل.

هذا المشهد صوره الفاروق عمر بن الخطاب بكلمته الرائعة :

ـ أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا (يقصد بلال بن رباح).

وإذا كان هذا عطف الصديق على إخوانه فى الإسلام، فما بالك بعطفه وحنانه على أسرته . . تلك الأسرة التى أنجبت عائشة وأسماء، ومحمد بن أبى بكر . . وكان أحفادهم مما احتفى بهم التاريخ إما فى سير الصالحين، وأما فى أصحاب القلوب الرقيقة الشاعرة . . التى عبروا برقتهم ورقه مشاعرهم عما جاش بهم من مشاعر الحب والعواطف النبيلة.

أسرة عريقة متماسكة . . خدمت الإسلام أجل الخدمات . . متمثله بما أدى الصديق من جلائل الأعمال، عندما حفظ للإسلام وحدته، وكون نواه أول امبراطورية عرفها الإسلام، وكان لأبنائه وأحفادة أدوارا وعيها سمع التاريخ، وحفظتها ذاكرة الأيام!

(٢)

قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام

« سوف يبدلها الله بناطقها.. نطاقين فى الجنة»

حديث شريف

(٢)

اسماء بنت أبى بكر الصديق

وأمها هى فتيله بنت عبد العزى بن عامر بن لؤى .

نشأت فى بيت من أكرم بيوت مكة ، فأبوها من الأثرياء ذو المكانة فى مكة . . والدها هو الصديق أبو بكر . . أقرب الناس إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . كان صديقا للرسول قبل الرسالة ، وكان من أول المصدقين به .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسجد لصنم قط فى الجاهلية ، وأنصرف عن هذه الأصنام إلى تأمل الكون والتفكر فيه فى غار حراء . . فإن الصديق هو الآخر انصرف عن عبادة هذه الأصنام منذ أن بلغ الحلم . ويروى الرواة على لسان الصديق قوله :

لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافه بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه أصنام ، فقال لى : هذه آلهتك الشم العوالى .

دخلانى وذهب .

قدنوت من الصنم وقلت له : إنى جائع فاطعمنى ، فلم يجبنى .

فقلت له : إنى عار فاكسنى . فلم يجبنى .

فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه!

هذه القصة تعنى أن أبا بكر كان راجح العقل، لا ينفاد بسهولة إلى عادات وتقاليد مجتمعه إذا كان فيها ما يتنافى مع العقل، ومع الفطرة السليمة.

كان أبو بكر محبوبا من الناس لسخائه وكرمه وحبه للناس، وخاصة للضعفاء منهم.

وكان صاحب شخصية جذابة محبوبة.. فقد كان أبيض الوجه.. معروقة. وكان نحيفا، خفيف العارضين. يمشى متنحيا بخطى سريعة، كما كان يجمع بين الطيبة وحدة الطبع إذا ما استثير.

وكان واسع الثقافة بالشعر وأنساب العرب.

ومرت الأيام.

وجاءت الرسالة بوحى من الله على الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام.. وكان أول الرجال إيمانا به أبو بكر الصديق الذى كان يصغر الرسول بعامين وعدة شهور، وأسلم بإسلامه عدد كبير من الشخصيات التى برزت فى تاريخ الإسلام أمثال عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيده الله، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو عبيده الجراح وغيرهم حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال عن أبى بكر:

ما دعوت أحد للإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر.

ولم يكن طريق الدعوة سهلا ولا ميسورا.. فقريش التى عاشت تحت ظلال الجهل والتخلف وعبادة الأسلاف، ما كانت تسيغ لنفسها أن تؤمن

بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . . فهل لا تقبل أن تمسى الهتها بسوء، ولا تقبل أن يتساوى السادة بالعبيد . . ولا يقبل أن ترتفع بنى هاشم إلى أعلا الذرا لأن واحدا منهم جاءته رسالة من الله إلى البشر . فتعنتوا وطالبوا الرسول بالمعجزات . . أو كما وصف القرآن الكريم ذلك بقوله المعجز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ الإسراء ٩٠ ـ ٩٣ .

وكانت هذه الكلمات المعجزة الباهرة، سدا منيعا أمام إفكهم وافتراءاتهم، فإن تنفع سخريتهم من الرسول الكريم، ولم تنفع إتهامه بالسحر والكهانة، والشعر، فلم يعرف العرب عن محمد عليه الصلاة والسلام، أنه ساحر أو كاهن أو شاعر !

لقد أجهدوا عقولهم الكلية للنيل من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن الرسول بمكانه ومواهبة وشجاعته وصبره استطاع أن يصمد، وينادى بالرسالة التى تخرجهم من الظلمات إلى النور . . وعادوا إلى تزمتهم وتعنتهم أو كما وصفهم القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ

الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ الفرقان ٧ : ٩ .

وكان لابد للدعوة أن تنتشر : وانتشرت وكان أغلب اتباعها فى أول الأمر من الضعفاء والمستضعفين والرقيق ، من أمثال عمار بن ياسر ، وياسر وأميه ، وبلال الحبشى . . وعذبتهم قريش ولكن الإيمان كان أقوى من جهل الجاهلين ، وتعنت السفلة من أهل زعماء مكة .

واستطاع أبو بكر الصديق أن يشترى بعض هؤلاء العبيد ويعتقهم لوجه الله . . من أمثال بلال بن رباح . . حتى أن والده قال له :

يا بنى ، أراك تعتق رقابا حنعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت اعتقت رجالا جلدار عبقرنك ويقومون دونك .

فقال أبو بكر : يا أبت إنى أريد ما عند الله .

فى هذه البنية الإيمانية نشأت اسماء بنت أبى بكر . شاهدت والدها بحصبة الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكاد يفارقه ويدافع عنه . . ويدعو إلى دين الله معه ، ويصدقه فى كل ما يقول حتى لقب بالصديق .

وكان لابد لها أن تتطبع بطباع والدها . . صلابة فى الحق . . قوة الإيمان . . الإيثار . . حب التضحية ، الجرأة والشجاعة .

❊ ❊ ❊

وتمضى الأيام . .

وبأذن الرسول لمن يريد أن يهاجر إلى الحبشة فليهاجر هربا من أطضهاد مكة وصلفها وتعنتها .

وبذهب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف لعله يجد أنصار الدين، فلم يجد هناك إلا الصلف والعنجهية والغباء، فلم يؤدوا للرسول ولا حتى حق الضيافة، بل أرواحببانهم أن يرموه بالحجارة حتى أوموا قدمية. . ولجأ إلى سور حديقة، وتوجه بكل كيانه إلى الله:

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقله حيلتى، وهوانى على الناس.

يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدوملكته أمرى. إن لم يكن على غضب فلا أبالى، ولكن عاقبتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصاح عليه أمر الدنيا والآخر، من أن تنزل بى غضبك، أو تحل على سخطك. . لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

وعاد من الطائف ولم يدخل الإسلام منها إلا خادم البستان (عداس).

* * *

حوصر الإسلام فى مكة.

وصد سادتها الناس عن الإسلام بحجة أن ما يأتى به محمد إنما هو السحر.

إلى أن شاء الله أن يقابل الله وفدا من يثرب وتكون بيعة العقبة الأولى، ثم يعدها بيعة العقبة الثانية، ويدخل فى الكلام يودع أم القرى:

والله إنك لأحب أرض الله إلى.

وإنك لأحب أرض الله إلى الله.

ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت .

وانطلقا فى طريقهما إلى يثرب .

وعلمت مكة بخروج الرسول فجن جنونها :

وتجه أبو جهل إلى بيت أبى بكر . . وطرق الباب ، وعندما فتحت له اسماء الباب ، لطمها على وجهها وهو يسألها عن والدها !

وكان الرسول قد مضى فى غار ثور ثلاثة أيام ، وكانت أسماء بنت أبى بكر ، تنتظر إلى أن يحل الليل ، فتنطلق بالطعام والشراب إلى الرسول وصحبه ، وقد قطعت نطاقها وربطت به فم الجراب الذى ـ فيه زاد النبى وصحبه فسميت ذات النطاقين . . وقال لها عليه الصلاة والسلام «سوف يبدلها الله بنطاقها نطاقين فى الجنة» .

موقف بطولى لاينسى لأسماء . . وهى تمضى وحدها تحت جناح الظلام لتقدم للرسول ولأبيها ودليلهما الطعام . . وتعود تحت جنح الظلام إلى بيتها لا يحس بها أحد ، ولا يشعر بها أحد .

وقد أسلمت أسماء وهى صغيرة السن . . وتزوجت من الزبير بن العوام فى مكة وكان الزبيربن العوام قد دخل الإسلام فى سن صغيرة . . قال البعض إنه كان ابن ثمانى سنوات . . وقال البعض الآخر بل كان فى الرابعة عشر من عمره .

وسواء كان فى هذا العمر أو فى ذاك فقد كان فى مقتبل العمر وكان يتيما . . وكان يرعاه عمه نوفل ، وقد قسا عليه كثيرا حتى يعود إلى دين الأباء والأجداد ولكن الزبير رفض ذلك ، ودافع عن ايمانه ، أنه على ذلك ، فأمه هى حيفة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكانت تريد

أن يكون ابنها فارسا شجاعا . . لايهاب شيئا . . ولا يخشى إلا الله . . ربته على تعاليم الفروسية والنبل، حتى لم تتورع أن تضربه حتى يشب كما تتمنى فارسا نبيلا .

مـن قـال أبـغـضـه فـقـد كـذب

وإنمـا أضـربـه لـكـى يـلـب

ويـهـزم الجيـش ويـأتـى بـالسـلـب

ولا يمـكـن لمـن لـه جـنـأ فـخـب

يـأكـل فـى الـبـيـت مـن تمـر وحـب

أى أنها تضرب أبنها حتى يشب رجلا عاقلا، يخوض الحروب بلا خوف ولا وجل، ويأتى بالأسلاب . . لم يكن غريبا من الزبير بن العوام عندما أسلم فى سنة تلك الصغيرة، أن يحرص على دينه، ويحرص على حضور جلسات النبى عليه الصلاة والسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . . يستمع إليه، وينهل من رحيق علمه، ويعرف دينه معرفة حقيقية . . ويصمد أمام عذاب عمه ويكرر أمام مسامعه أنه لن يكفر بالإسلام أبدا .

وبلغ من حبه للرسول عليه الصلاة والسلام فى أول عهده بالإسلام . . وفى سنة الصغيرة، أن سمع إشاعة تسرى فى مكة أن النبى قتل، فما كان من الزبير إلى أن حمل سيفه، وسار فى طرقات مكة، وفى عزمه أن يقتل كل من يصادفه وله يد فى قتل الرسول، وفى أعلا مكة شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام . . وعندما عرف الرسول بسر مقدمه دعا له ولسيفه ولكن الزبير وقد أراد إلا يفتن فى دينه، وخاصة بعد أن

اشتد تعسف مكة مع المسلمين، واضطهادهم، هاجر إلى الحبشة الهجرتين ـ الأولى والثانية ـ فكان مؤمنا شديد الإيمان بدينه . . شديد الاعتزاز به . . وبالتالى فقد كان الزوج المثالى لأسماء ذات النطاقين بنت أقرب الناس إلى قلب الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبعد هجرة الرسول إلى يثرب التى أصبحت (المدينة) . . والتى أخر فيها النبى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار . . ووضع دستور المدينة التى يكفل فيها حرية العبادة للجميع . . وآمن اليهود على ممتلكاتهم وحريتهم فى العبادة على ألا يخونوا المسلمين . . وأصبح مجتمع المدينة مجتمعا معطرا بأريج الروح الإسلامية . . وشهيا المسلمون لأداء دورهم فى تغيير الحياة . . فقد أصبح لهم قوة . . وأصبح لهم مهابة . . وأصبح لهم دور فى شبه الجزيرة العربية . . وقد آن الأوان لتألق الدعوة وانتشارها، وسرعة التحرك من سمات هذه الفترة . . فسوف تبدأ المجابهة مع مكة والقبائل الأخرى التى لا تزال على الكفر . وآن الآوان أن يصبح الجهاد الوسيلة لتحقيق هذه الغايات لخلق مجتمع إسلامى يطبق شريعة الله . . وتجعل من المسلم واعيا يحتويه نحو ربه، وحقوقه نحو الأخرين أصبح مجتمع المدينة بعج بالحركة والحياة ، وألق الروح، وجمال التقوى، وروعة اليقين . .

وناقت روحها إلى الهجرة إلى المدينة .

كانت اسماء عندما ودعت والدها والنبى الكريم وهما فى الطريق إلى المدينة، قد رجعت إلى دار والدها، وتتابعت فى خيالها الذكريات . . والحنين إلى الرحيل إلى مجتمع النخبة الممتازة من المهاجرين والأنصار . . وطرق الباب جدها أبو قحافة يريد أن يطمئن عليها، وهل ترك ولده أبو

بكر بعض المال لتعيش به حفيدته . . وكان أبو بكر قد حمل معه كل ما يملك من مال ، إلا أن اسماء أرادت أن تطمئن جدها بأن وضعت بعض الأحجار فى كوة فى المنزل ، أخذت تحركها حتى يطمئن جدها الضرير بأن أبا بكر قد ترك لها من المال ما يكفيها .

يسألها الجد :

والله إنى لا أراه ـ يقصد ابنه أبو بكر ـ قد فجعكم فى ماله مع نفسه .

قالت اسماء :

كلا إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا .

ولكن الشيخ أراد أن يطمئن ، فأخذ يتحسس الكوة ، ولامست يده الأحجار التى غطتها اسماء بثوب وظن أنه مال ، وخرج مطمئنا .

لقد عزمت أسماء على الهجرة إلى المدينة لتلحق بسيد الأنبياء والمرسلين ، وبأبيها ، وكانت حاملا بابنها عبدالله ، التى وضعته فى السنة الأولى للهجرة بالمدينة ، وكان أول طفل من المسلمين يولد فى المدينة .

(٣)

وكان ابنها عبدالله أول طفل من المهاجرين يولد فى المدينة

في مجتمع المدينة عاشت اسماء بنت أبي بكر مع زوجها الزبير بن العوام، ورضيعها عبدالله . . سعيدة بما ترى من انتصارات الإسلام الذي أصبح قوة لا يستهان بها، أين هم وهم سادة المدينة، من أيامهم في مكة حيث الاضطهاد والسفه والتعذيب والسخرية .

إنهم هنا هم سادة

لا فرق بين الأنصار والمهاجرين

كلهم أخوة في الله .

ورغم شظف العيش في أول الأمر، ورغم عدم تعود المهاجرين على مناخ المدينة، فقد طابت لهم الحياة بعد ذلك، بفضل الإيمان الذي يملأ القلوب والعقول . .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أقام مسجده، وبجواره مسكنه ومرت سبعة شهور . . على الهجرة وإذا بالرسول عليه الصلاة والسلام يتزوج من عائشة رضي الله عنها . . أخت اسماء بنت أبي بكر ويقول الأستاذ العقاد عن عائشة : ولا يعرف على التحقيق أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها، ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأطرها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشر أو الثانية عشر قبل الهجرة، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم نبى بها الرسول عليه الصلاة والسلام .

وجملة ما فيهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء، فكان عليه الصلاة والسلام يلقبها بالحميراء . . وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر، كما مر في كلامها عن السيدة صفيه، وكانت في صباها

نحيله أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خاليا يحسبونها فيه .

ويقول عن أوصافها أيضا :

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال، وكان أبوها رضى الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولامراء والظاهر أنها ورثت عنه كثيرا من خلقه وخلفه على السواء . فقد كان الصديق جميلا ، حتى جاء فى بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله . وكان نحيلا دقيق التكوين كما هو مشهور، وكان فيه حده طبع مع حدة ذكاء، وكان كريما سريعا إلى نجدة المعوذين والضعفاء، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب فى الجاهلية ولا فى الإسلام، وكان ماض اللسان قديرًا على إحجام من يجترئ عليه، وتشبه السيدة عائشة فى هذه الخلائق شبها كان يوحى إلى النبى على السلام كلما سمعها تجيب من يساحلها أن يقول : إنها إبنة أبى بكر . . إنها إبنة أبى بكر!

لقد إقترحت خولة بنت حكيم على النبى عليه الصلاة والسلام الزواج قالت له :

ـ أى رسول الله ألا تتزوج؟

فسألها : من؟

قالت : إن شئت بكرا، وإن شئت ثبيا .

وعندما سألها عن البكر قالت عائشة بنت أحب خلق الله إليك وعن الثيب قالت : سوده بنت زمعه .

وتمت الخطبة فى شوال سنة عشر من الدعوة كما يقول الأستاذ العقاد، وأصدقها النبى أربعمائة درهم على أشهر الروايات.

قالت عائشة فيما يروى الإمام البخارى:

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرا غيرى، وقد تزوجنى بأمر من السماء. فقد رأى فى المنام شخصا يحمل إليه قطعة من الحرير، وقد نقشت فيها صورة، فلما كشف الرسول عنها وجدها صورتى، فتعجب من ذلك.. نسأل: من هذه؟

فقيل له: هذه أمرأتك.. فازداد عجبا!

فقد حدثنى رسول الله بذلك فقال:

«رأيتك فى المنام مرتين، أرى رجلا يحملك فى خرقة من حرير فيقول. هذه امرأتك، فاكشف عنها فإذا هى أنت!

فأقول: إن يكن هذا من عند الله ينفذه.

* * *

ثم حدث أن جاءت إلى بيته امرأة مسلمة بعد وفاة خديجة.

وقالت له:

ـ يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك الأحزان لفقد خديجة أأخطب لك؟ ثم ذكرتنى له.

فعجب رسول الله ﷺ من قولها، إذ واق ذلك ما رآه فى منامه. فكان أن خطبنى من أبى وأنا فى مكة، وتزوجنى بعد ذلك فى أول أعوام الهجرة.

كانت الحياة فى المدينة للسيدة اسماء رضى الله عنها . . فزوجها فارس من فرسان المسلمين ، ابن صفية عمة رسول الله .

وأختها عائشة أحب زوجات الرسول إلى قلبه وكانت تكنى باسم اين أختها اسماء عبدالله . . فكانت تكنى باسم أم عبدالله .

وتمضى الأيام . .

وفى يوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة تقع أول مجابهة حاسمة بين المسلمين والمشركين من أهل مكة . . إنها معركة (بدر) الذى انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما . . فقد قال الرسول لأصحابه قبل المعركة والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير بدر ، إلا أدخله الله الجنة .

وفى هذا اليوم الخالد فى تاريخ الإسلام شاهدت أسماء زوجها الزبير بن العوام يلبس عمامة صفراء ، ويخوض المعركة بجسارة وجرأة ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال للمسلمين :

أبشروا إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير عليها عمائم صفر !

وانتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، وقتل من مكة زعماء الكفر من أمثال أبى جهل ، وأميه بن خلف وغيرهما .

ورأى الرسول الكريم أن يحفر قليب يدفن فيه القتلى من المشركين وخاطبهم الرسول قائلا :

ـ يا أهل القليب ، بئسى عشيرة النبى كنتم لنبيكم .

كذبتمونى وصدقنى الناس .

وأخرجتمونى وآوانى الناس .

وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا . فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا .

فقال المسلمون :

ـ يا رسول الله أتنادى قوما جيفوا؟

فقال عليه الصلاة والسلام!

ـ لقد علموا أن ، وعدهم ربهم حق .

مكث المسلمون فى بدر ثلاثة أيام ، دفنوا موتاهم ، وأرسلوا إلى المدينة من يبشر أهلها بالنصر العظيم .

ولم يكن من السهل على قريش أن تنسى ثأرها . . أخذت تستعد للثأر .

وكانت معركة (أحد) . . الذى انتصر فيها المسلمون أول الأمر ، إلا أن الرماة خالفوا أمر الرسول ، عندما رأواه أن النصر سيكون حليفهم ، وتركوا مواقعهم ، ونزلوا من أجل الغنائم ، وكانت فرصة أمام خالد بن الوليد قائد جيوش قريش أن يلتف حول المسلمين ، ومالت الدائرة على المسلمين ، وقتل الحمزة بن عبد المطلب على يد العبد وحشى ، بتحريض من هند بنت عتبه ، الذى شقت بطن الحمزة عم رسول الله ، ولاكت كبده ، انتقاما منه لما فعله بالمشركين ببدر وقتله أباها يوم بدر ، وكذلك فعل زوجها أبو سفيان بن حرب ، الذى أخذ يضرب جسد حمزة الطاهر بكعب رمحة ويقول :

ـ ذق عُتق .

وأمام هول المعركة التف الناس حول الرسول، وجاهدوا عنها جهادًا رائعا، حتى خشى الكفار أن تدور الدائرة عليهم، فآثروا الانسحاب من المعركة، مكتفين بما حققوه.

وتفقد أعظم رسل الله أرض المعركة، وشاهد جثث الشهداء . .

ورأى ما فعل المشركون بعمه الحمزة، فبكى وقال :

ـ ما وقفت موقفا أغيظ من هذا الموقف .

وقال رائيًا عمه :

﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ .

رحمك الله يا عمى .

فقد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات .

فوالله لئن نصرنى الله عليهم لأمثلن بسبعين رجلا منهم .

ووصل هذا الحزن العميق نزل قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ .

فقال عليه الصلاة والسلام :

ـ نعم نصبر .

ونظر رسول الله إلى (مصعب بن عمير) . . أول سفير للإسلام فى المدينة، والذى فضله دخل أهلها فى الإسلام، وقد وجده صريعا . . مخرق الثياب، فرثاه باكيا :

لقد رأيتك بمكة، ومابها أحد أرق حله، ولا أحسن لمة منك، ثم أنت اليوم أشعث غبر الرأس فى بردة.

ووسط هذا المشهد الحزين أقبلت صفية بنت عبدالمطلب تبحث عن أخيها الحمزة، وأشفق عليها الرسول وطلب من ابنها الزبير بن العوام، أن يروها، ولكنها توجهت حيث يرقد جسد أخيها الطاهر.. وقالت لابنها.

ـ قد بلغنى أنهم مثلوا بأخى، وذلك فى سبيل الله.

فما أرضانا بما كان من ذلك، وبما أراد الله والله لأصبرن، واحتسبه عند الله سمع الزبير قول والدته سليلة الأسرة الهاشمية فتوجه إلى الرسول يخبره بشجاعة صفية وصبرها.. فأمر الرسول بأن يتركوها.

وأمام الجسد الطاهر.. استغفرت ربها، وترحمت على أخيها الشهيد العظيم.. أسد الحرب.. وبطل بدر وأحد، والذى قتلوه غدراً بسهم عن بعد.. زرفت دموعها وقالت.

إن يـومـا أتـى عـلـيـك لـيـوم

كـدرت شـمـسـه وكـان مـضـيـئـا

وعادت إلى بيتها.

وعاد الزبير وهو حزين لما أصاب النبى فى هذا اليوم..

وحزين لحزن أمه.

وكانت اسماء تعيش هذه الأحزان.. وهى ترى حزن أم زوجها صفية وتجلدها.. ولكن هذه الأحداث كانت تكسبها شجاعة وقدرة على تحمل المواقف الصعبة.

وكانت معركة أحد معركة لها دروسها . . فقد أيقن المسلمون أن عليهم ألا يخالفوا أمر الرسول، وأن ينصاعوا لأقواله . . وأن عليهم أن يجاهدوا مؤزين الموت على الحياة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال : ٢٤ .

لقد نزلت سورة آل عمران بعد أحد . . وفى هذه السورة توضيح لما بنيتى عليهم من طاعة الرسول، والأمل فى الله، والامتثال لتعاليمة . . وما يلقاه الشهداء من رضوان الله، والصبر على المكاره .

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران : ١٤٠ .

دوعت قلوب المؤمنين الدرس، وفهموا معنى الجهاد :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧٠ .

لقد كانت اسماء سعيدة وهى ترى هذه الأحداث التى تمر بالمسلمين، وأهلها وأقرب الناس إليها فى آتون هذه المعارك التى يقودها النبى الخاتم وزوج أختها عائشة .

والذى شارك فيها زوجها الزبير بن العوام التى امتلأ جسمه بالجراح من كثرة المعارك التى خاضها فى سبيل دينه حتى أن أحد أصحابه قال عنه : صحبت الزبير بن العوام فى بعض أسفاره، ورأيت جسده، فرأيته

مجذعا بالسيوف، وإن فى صدره لأمثال العيون الغائزة من الطعن والرمى.

فقلت له: والله لقد شهدت بجسمك مالم أراه بأحد قط.

فقال لى:

أما والله ما فيها جراحة إلا مع رسول الله وفى سبيل الله.

وفى كل المعارك التى خاضها الزبير أيام رسول الله، كان هو الجسور فى المعارك.. الحريض على الاستشهاد، حتى أنه فى معركة (حنين).. وبعد أن انتصر المسلمون فيها بعد أن كاد يجيق بهم الهزيمة، لولا شجاعة الرسول الذى استبسل فى هذه المعركة والتف حوله المسلمون، فتحولت الهزيمة إلى نصر.. رأى الزبير فى أعقاب هذه المعركة (مالك بن عوف) زعيم هوازن، ومعه جماعة من أنصاره، فانقض عليهم وحده، وفروا من أمامه.. لكل هذه المواقف المشرفة قال عنه أعظم رسل الله.

ان لكل نبى حواريا، وحوارى الزبير بن العوام.

وسط هذه البيئة الشجاعة المؤمنة، عاشت اسماء بنت أبى بكر، فربت أبناءها على هذه المثل.. الشجاعة.. الوفاء.. وعدم الغدر، ونحمل أصعب المهام وأشقها.. والاستهانة بالصعاب والوقوف بجانب الحق مهما كانت أهوال الطريق، وهذا ما سيظهر جليا فى مستقبل الأيام، عندما أصبح ابنها عبدالله خليفة، تدين له بالولاء الحجاز والعراق واليمن، وعندما تأليت عليه كل القوى.. يمها وقفت بجانب الحق، تشجع ولدها على الموت فى سبيل المبادئ التى آمن بها، وأنه لا يحق له بعد أن احتشد الناس حوله إلا الاستشهاد.

(٤)

كما كان اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة أضاء فيها كل شىء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شىء وما نتعضا أيدينا من دقته حتى أنكرنا قلوبنا

أنس بن مالك

عاشت اسماء فى المدينة . . ورأت كيف يتغير المجتمع فى شبه الجزيرة العربية بسرعة . . فرغم المعارك التى خاضها المسلمون، إلا أن الإسلام يزداد قوة يوما بعد يوم . . ويزداد انتشارا يوما بعد يوم . . فقد كانت غزوة (بدر) نقطة فاصلة فى تاريخ الإسلام . . أصبح للمسلمين القوة التى تجعل كلمة الله هى العليا ولكن كان هنا ما أرق أسرة الصديق . . وهو حديث الإفك .

فقد حدث أن علم الرسول . . وكان ذلك فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة أن (الحارث بن أبى ضرار) سيد بنى المصطلق يريد أن يهاجم المدينة، فتوجه الرسول لملاقاته قبل أن يهاجم المدينة، وعند بئر (المريسع) التقوا بالحادث وقومه، فعرض عليهم الرسول الإسلام فأبوا فهاجمهم المسلمون وانتصروا عليهم، ودفعت فى الأسر (جويريه بنت الحارث) . التى استنجدت بالرسول . . يعرض عليها الزواج ووافقت وأصبح النبى عليه الصلاة والسلام صهرا لبنى المصطلق، مما حدا بالمسلمين أن يراعوا هذا النسب، فلم يعاملو أسراهم معاملة الأسرى، مما حدا بهذه القبيلة أن تعلن إسلامها أو على حد تعبير عائشة رضى الله عنها : لم يكن زواج امرأة أيمن على قومها من زواج (جويريه) فقد اسلم بإسلامها مائتا بيت من بيوت العرب وكان زواجها خيرا وبركة .

إلى أنه حدث فى هذه الغزوة ما عكر صفو رسول الله، وأسرة الصديق . . وهو حديث الإفك . تعد حدث بعد هذه الغزوة أن قرر المسلمون العودة إلى المدينة . . وكانت عائشة مع النبى فى هذه الغزوة . . وقد أحست أن عقدها قد سقط منها . . وأن حياته تفرقت على الرمال، فأخذت تجمع حبات هذا العقد . . حيث كانت تقضى حاجاتها، وعندما

رجعت إلى هودجها، كان المسلمون قد رحلوا إلى المدينة ورآها (صفوان بن المعطل) . . وهو صحابى فاضل، فأركبها ناقته، وأخذ هو بزمام الناقة وعاد بها إلى المدينة .

حدث عادى بسيط .

ولكن المنافقين حولوه إلى حدث بالغ الخطورة حين انهم اتهم ابن أبى رأس المنافقين فى المدينة السيدة عائشة بما لا يليق وتحدث المنافقين وخاضوا فى حديث الإفك وسرعان ما انتشرت هذه الإشاعة الظالمة . . واستشار الرسول أصحابه (على بن أبى طالب، أسامة بن زيد، عمر بن الخطاب، وزينب بنت جحش، والجارية بريره .

قال اسامة :

أمسك أهلك يا رسول الله، فوالله لا أعلم عنهم إلا خيرا .

وقال عمر :

لقد زوجها لك ربك يا رسول الله ، وهو لا يخدع نبيه .

وقال على :

يا رسول الله لا تحزن، لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير .

وقالت زينب :

احمى سمعى وبصرى يا رسول الله، لا أعلم عنها إلا خيرا .

وقالت بربره :

لا والذى بعثك بالحق، ما رأيت شيئا أخذه عليها، سوى أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين فتأتى الدواجن فتأكله .

وعلمت السيدة عائشة بهذا الإفك، فحزنت حزنا شديدا، فقد قال لها الرسول عليه الصلاة والسلام ذات يوم يا عائشة لقد بلغنى ما بلغنى، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت قد أخطأت فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه .

وتقول السيدة عائشة فيما رواه الإمام البخارى :

فلما ألم الرسول ﷺ كلامه احتبس الدمع فى عينه، من شدة الألم والتأثر، ولم أستطع الكلام فالتفت إلى أبى وأمى وقلت لهما :

ـ أجيبوا رسول الله عنى .

فقالوا :

والله ما ندرى ما تقول له .

فقلت :

لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، وثبت فى أنفسكم وصدقتم به .

وإن اعترفت لكم والله يعلم إننى لبريئة ـ صدقتم قولى . . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وأخذت أبكى واتقلب على فراشى، وكأنى أتقلب على جمر ورجوت الله أن يبرئنى فيرى الرسول فى نومه ما يثبت براءتى .

وما ظننت أن الله ينزل فى شأنى قرآنا، فأنا أهون فى نفسى أن يصنع الله لى ذلك .

ـ والله ما ترك الرسول مجلسه من بيتنا حتى نزل عليه الوحى، وأخذ

العرق يتحدر من جبينه فلما ارتفع عنه الوحى، أبتسم الرسول ﷺ وقال:

ـ يا عائشة احمدى الله فقد برأك ربك.

فدخل الفرح أهلى، وقالت أمى:

ـ قوى إلى رسول الله فاشكريه.

قلت:

الشكر لله.. والحمد لله.. انزل براءتى من السماء.

لقد أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآيات من سورة النور:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ النور: ١١ ـ ١٧

محنة هائلة ابتليبت بها عائشة.. ووالدها.. وأخواتها.. إنها فتنة أراد بها المنافقون الوقيعة بين الرسول وأحب أزواجه إلى قلبه:

والوقيعة بين الرسول وأقرب الناس إليه أبى بكر الصديق . . فقد ظل المنافقون فى المدينة يثرثرون ويخوضون فى شرف السيدة عائشة . . قبل أن تنزل براءتها من السماء، رغم أن النبى قال لهم:

أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهن غير الحق، والله ما علمت عليهن إلا خيرا، ويقولون ذلك عن رجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى.

وما يقوله الرواة عن هذه الحادثة . . وما نجم عنه، تدل كم كانت أسرة الصديق على سمو خلقى عال، فمن هؤلاء الذى كانوا يخوضون فى حديث الإفك رجل مسكين قريب لأبى بكر . . وقد كان أبو بكر يتكفل به، فلما سمع أنه كان يخوض مع الخائضين، قرر إلا ينفق على هذا الرجل، ولكنه سامحة وأعاد إليه ما كان يعينه على الحياة.

ولا شك أن أسماء مرت بها هذه الفترات فى حزن وألم شديدين . . فقد كانت شديدة الحب لأختها، وكانت تكنى باسم ولدها عبدالله.

وكم ترى كم كان الرسول عليه الصلاة والسلام حليما صبورا . . راقى المشاعر والتفكير.

فقد غضب الرسول على (عبدالله بن أبى) لإذاعته هذه الاشاعة السخيفة، وكان له ولد صالح (عبدالله) . . الذى تقدم للرسول عليه الصلاة والسلام وقال له:

ـ يا رسول الله . . إنه بلغنى أنك تريد قتل (عبدالله بن أبى) فيما بلغك عنه. وقلت من يعذرنى فى رجل آذانى فى أهلى؟

فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل لك رأسه!

فوالله ما علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى .

وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلاتدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فاقتله ، فاقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال له عليه الصلاة والسلام :

بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا .

كم كانت تنثال الذكريات على قلب وعقل اسماء بنت أبى بكر ، وهى ترى التحولات الكبرى التى تحدث . . وأنها قريبة من الأحداث بحكم أنها بنت الصديق أقرب المقربين إلى الرسول ومستشاره .

وبحكم أنها أخت عائشة رضى الله عنها زوج الرسول وأقرب أزواجه إلى نفسه .

وبحكم أنها زوجه الزبير حوارى الرسول ، والفارس الذى يخوض المعارك بجسارة منقطعة النظير مع أعظم رسل الله .

وبحكم انها أم (عبدالله) . . الذى استبشر به المسلمون خيرا عندما ولد فى المدينة ، وكان أول مولود فى الإسلام ، وبذلك قضى مولده على (فريه) ادعاها اليهود ، بأنهم سحروا المسلمين ، ولن يستطيعوا الإنجاب ، فلما له عبدالله . . فرح المسلمون بذلك فيما يشبعه اليهود . . وكان مولده فى قباء . . وسر الرسول عليه الصلاة والسلام عندما علم بولادته ، وهو الذى سماه عبدالله ، وقال لأمه أسماء .

ـ أرضعيه ولو بماء عينيك .

بل أن الرسول عليه الصلاة حنكه بتمره يوم حملة أمه إلى رسول الله، وكان أول ما دخل فى جوفه ريق رسول الله.

كانت أسماء بنت أبى بكر سعيدة بهذا الجو الإسلامى والروح الإسلامى التى تعيش تحت سمائه فى المدينة.. وكانت سعيدة عندما بايع ابنها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو ما يزال فى الثامنة من عمره.. كانت سعيدة أيضا عندما تسمع أخبار إبنها وطموحاته. فهو عندما يلعب مع الأطفال يتزعمهم.. وهو قد شب لا يخاف أحدا، ولا يهاب أحدا، حتى قبل أنه كان يلعب وهو صغير مع الأطفال وهرب الأطفال عندما رأواه عمر بن الخطاب.. يهيتبه المعروفة، بينما ظل عبدالله بن الزبير يلعب وسأله عمر بن الخطاب:

ـ مالك لم تفر معهم؟

فقال عبدالله:

ـ لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقه فأوسع لك.

أيام مجيدة. تلك التى عاشتها اسماء بنت أبى بكر.. وهى ترى التحولات الكبرى فى المجتمع.. إنه عصر النبوة.. عصر الرسول عليه الصلاة والسلام.. الذى كان له رحيقه وجماله وجلاله.. فالتشريعات التى تحدد علاقة الناس بربهم ينزل بها وحى السماء.

والعبادات التى يتقرب بها المؤمنون من صلاة وصيام وزكاة، تزكى النفوس، وتتطهر الأبدان، وتسموا بالأرواح.

والجهاد فى سبيل الله يقوى شوكة الإسلام، وينشر أضواءه فى كل مكان.

وشبه الجزيرة العربية التى كانت قبائل متنافرة متفرقة متناحرة دخلت الإسلام . . وجاءت الوفود من كل مكان تبايع الرسول عليه الصلاة والسلام .

والرسول الكريم يبعث برسائله إلى ملوك العالم وحكامه يدعوهم إلى دخول الإسلام .

وأصبح الإسلام قوة بالغة الأهمية والخطورة . . قوة لا تخشى القياصرة . . ولا الأكاسرة . بعد أن توحدت كلمة المسلمين تحت راية الإسلام .

وفى ذات يوم حزين مرض رسول الله ، بعد أن زار أهل البقيع ، لقد كان عليه الصلاة والسلام يحس بدنو أجله ، وعندما أخذ يودع (معاذ بن جبل) وهو فى طريقه إلى اليمن ، قبل أن يحج حجة الوداع ، قال له موصيا :

ـ يا معاذ . . إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا . . ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى !

فبكى معاذ بن جبل خشية مفارقة رسول الله . . والتفت النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وقال :

أن أولى الناس بى المتقون ، من كانوا وحيث كانوا .

مرض رسول الله بعد أن زار البقيع . . وكان معه مولاه أبو مويهبة . . قال لأبى مويهبه .

ـ يا أبا مويهبة أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . . خيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة .

قال له أبو مويهية :

ـ بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

فيقول له النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام :

ـ لا والله يا أبا مويهية . . لقد اخذت لقاء ربى والجنة .

ورجع النبى إلى منزله يشكو الصداع . . ثم بدأ المرض والمسلمون قلقون على نبيهم أشد القلق . . خاصة بعد أن أمر الصديق أن يصلى بالناس .

وكانت الصورة فى أشد الحاجة إلى وجود النبى . .

فهناك جيش أسامة الذى يعسكر فى الجرف وقد أمره النبى عليه الصلاة والسلام التوجه إلى الشام لمواجهة الروم .

وهناك الفتن التى بدأت تظهر فى شبه الجزيرة من الذين يدعون النبوة . . وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم .

وكلما اشتد مرض النبى كلما ازدادت أحزان المسلمين . حتى أن النبى تحامل على نفسه ، ودخل إلى المسجد ، وخطب الناس وهو يغالب المرض ، وقال لهم :

أيها الناس بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم . هل خلد بنى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ، ألا وأنى لا حق بربى وأنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير فإن الله يقول : ﴿ **وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ .

وتمضى أيام المرض . . وينتقل الرسول الكريم إلى أكرم جوار ويخرج صوت ابنته الزهراء ناعية والدها العظيم :

ابتاه . . أبتاه

يا أبتاه

أجاب ربا دعاه

يا أبتاه . . جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه . . إلى جبريل ننعاه .

كانت وفاته عليه الصلاة والسلام بعد حجة الوداع بواحد وثمانين يوما . . وقد مضى إلى ربه وهو فى الثالثة والستين من عمره .

قال أنس بن مالك :

لما كان اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة أضاء فيها كل شىء .

فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شىء وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .

(٥)

وكانت أخر كلمات أبى بكر الصديق

رب أمتنى مسلما والحقنى بالصالحين

مضى رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه .

وجاء الصديق من دارة السنح وعلم برحيل الرسول إلى أكرم جوار فتوجه حيث الجسد الطاهر ، وقبل رسول الله ، وقال كلمته الخالدة :

« طبت حيا وميتا يا رسول الله» .

وفى مسجد الرسول كان المسلمون يجتمعون ، وعمر بن الخطاب يتوعد من يقول أن رسول الله مات . . فقد كان وقع وفاة الرسول عليه شديدا . . وصعد الصديق المنبر . . وخطب الناس وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

من كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

ومن قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن أن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبية فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ .

وكانت كلمات الصديق بردا وسلاما على القلوب التى أذهلتها المفاجأة ، وكأنهم لم يقرأوا هذه الآية الكريمة ، وكأنهم لا يعلمون أن الرسول بشر ، وأنه سيلاقى ربه عندما يحين الأجل المحتوم .

قال عمر بن الخطاب بعد أن سمع خطبة الصديق :

قال عمر بن الخطاب بعد أن سمع خطبة الصديق :

والله ما أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ، ما تحملنى رجلاى . وعرف أن رسول الله مات .

ولكن الأمور لم تكن سهلة ولا هينة .

فقد علم الصديق وعمبر الخطاب وأبو عبيده الجراح أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بن مساعدة يريدون أن يكون الأمر فى يدهم ، فيبايعون سعد بن عبادة خليفة لرسول الله وأسرع الثلاثة المهاجرين حيث الاجتماع ودار حوار طويل حول أهمية من يكون خليفة للرسول عليه الصلاة والسلام . . وبعد حوار طويل طالب الأنصار أن يكون منهم أمير وعن المهاجرين أمير . فقال الصديق : منا الأمراء ومنكم الوزراء وقال أبو عبيدة يريد أن يحسم الأمر لصالح المهاجرين موجها كلامه للأنصار !

ـ يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

وخشى الصديق من شدة عمر وعنفة فمنعه من الكلام ، واستطاع الصديق برباطة جاشه ، أن يجمع الناس على رأى واحد فبايعوا الصديق . . وإن كان الصديق يريد من الناس أن يبايعوا إما عمر وأما أبو عبيدة الجراح . . ثم بايعه الناس بعد ذلك مبايعة عامة .

وكان على بن أبى طالب يصبوا إلى هذا المنصب ولكنه كان مشغولا بجهاز رسول الله .

وحاول أبو سفيان بن حرب أن يشعلها فتنة محرضا على بن أبى طالب أن يبايعه ، ويبايعه الناس ، فكان يستكثر الخلافة على الصديق . . وقد يظن على لذلك فخشى الفتنة فى ظروف بالغة الصعوبة وبايع الصديق . . وقد عاتبه أبو سفيان واستفزه قائلا :

ـ يا بنى عبد مناف غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت من قريش !

رد عليه على يريد وضع حد للفتنة .

ـ ما زلت عدوا للإسلام وأهله، فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئا . . إنا رأينا أبا بكر لها أهلا وهكذا حسم الصراع على الخلافة . وأصبح الصديق أول خليفة لرسول الله .

وقد سأل أبو قحافة عمن ولى الخلافة بعد رسول الله فقالوا له إبيك .

قال : فهل رحبت بذلك بنو عبد مناف وبنو المقبره؟

قالوا : نعم .

قال : لا مانع لما أعطى الله، ولا معطى لما منع الله .

ظهرت مواهب الصديق وقدراته الرائعة فى فترة حكمه القصيرة . . فالأمور كانت بالغة الصعوبة . . فقد ارتد البعض عن الإسلام . . وامتنع البعض عن دفع الزكاة . . وادعى البعض النبوة .

ووسط هذا التشتت والظروف البالغة الصعوبة كان هناك أيضا جيش أسامة الذى كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد اعده لمجابهة الروم . هل يتركه الصديق يذهب لمجابهة الروم أم يدخر هذا الجيش لمواجهة الفتن الداخلية .

لم يستمع الصديق لما قالوا له أن يستخدم الجيش اسامة فى القضاء على المرتدين ومانعى الزكاة ومدعى النبوة، وأمره أن يتوجه إلى نفس المهمة التى أرادها رسول الله .

وأخذ ينصح الجيش المسافر لمجابهة أقوى قوى العصر . . واضعا أسسا غالية لحقوق الإنسان، وشريعة الحرب «لا تخونوا ولا تغلو ولاتغدروا،

ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولاتعقروا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا يفره ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» .

وجعل الصديق عمر للقضاء .

وأبو عبيدة مسئولا عن المال .

وعندما أراد أن يذهب إلى السوق للتجارة ليعيش منها، اقترح عليه على بن أبى طالب أن يتفرغ للخلافة وأمور المسلمين، على أن يكون له ما يعيش به من بيت المال . . واستقر الأمر على أن يكون له جلبابا للشتاء، وآخر للصيف وثلاثة درهم فى اليوم، وراحلة للسفر!!

هذه كل مخصصات أول خلفاء المسلمين . وحارب الصديق فى كل الجبهات . المرتدين . . ومدعى النبوة . . ومانعى الزكاة .

وظهرت مواهبة السياسية الجبارة . . فقد نجحت سياسته . . وتوحد المسلمون تحت راية الإسلام من جديد، ودفع الناس للجهاد خارج شبه الجزيرة العربية لمجابهة الفرس والروم!!

كانت أسرة الصديق أسرة تمثل الصديق .

ولا شك أن عائشة رضى الله عنها كانت سعيدة بأن يكون والدها خليفة زوجها أعظم رسل السماء .

ولا شك أن اسماء بنت أبى بكر كانت أيضا سعيدة بنجاحات والدها . فلم يكن مبتدعا بل كان متبعا . . متبعا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وانطلقت الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق . . فقد حقق خالد بن الوليد انتصارات رائعة على الروم . وحقق المثنى بن حارثة الشينا فى انتصارات قد هله على الغرب .

ولمعت أسماء قادة العرب . . خالد بن الوليد . . عمرو بن العاص . . أبو عبيدة الجراح ، يزيد بن أبى سفيان وغيرهم .

ولم تكن أسرة الصديق تجلس لتعيش عيشة الأسر الحاكمة المترفة .

بالعكس تماما . . لقد ذهبوا إلى الجهاد فى سبيل الله . خرج الزبير بن العوام مصاحبا ابنه عبدالله فى فتح الشام . . وكان عبدالله مازال فى الرابعة عشر من عمره عندما شهد معكرة اليرموك فى عهد عمر بن الخطاب .

وانتقل الصديق إلى رحاب الله فى مساء الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الأخرى فى السنة الثالثة عشر للهجرة . بعد أن أوصى أن تكون الخلافة من بعد لعمر بن الخطاب ، ودفن إلى جوار حبيبه المصطفى عليه السلام . بعد أن مضى فى الخلافة عامين ونحو ثلاثة أشهر .

كان فراق الصديق صعبا على المسلمين بعد أن حقق هذه الانجازات التى تفوق الخيال . . بتوحيده المسلمين تحت راية واحدة ، وإرساله الجيوش لغزو الروم والفرس ، ويطهر البلاد من مدعى النبوة والكذابين الدجالين .

وتركت وفاته بصمات على ابنائه وبناته . . فقد رثته عائشة رضى الله عنها بقولها على قبره :

« نصر الله يا أبت وجهك، وشكر لك صالح عملك، فقد كنت مذلا للدنيا باعراضك عنها، وللآخرة باقبالك عليها. ولئن كان أجل الحداث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعدنا بالقراء عنك حسن العوض منك، فأنا انتجز من الله موعودة فيك بالصبر عليك، واستعيضه منك بالدعاء لك، فإنالله وإنا إليه راجعون. وعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالبة لك، ولازاريه على الحياة منك».

وما أعظم إيمان الصديق.

حتى وهو يعانى سكرات الموت، سمع ابنته عائشة تردد باكية:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتن

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ففتح صاحب الإيمان العميق عينيه وقال لها:

ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن كما قال الله عزوجل:

﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾.

وكانت آخر كلماته رضى الله عنه:

رب أمتنى مسلما والحقنى بالصالحين.

بعد أن مضى الصديق إلى أكرم جوار.. كانت الحروب مع الفرس والروم على أشدها.. وتحققت انتصارات مذهلة.. فقد تحقق الانتصار على الفرس فى العراق، ودخلت جيوش المسلمين المدائن نفسها عاصمة كسرى. ودخلت فلسطين والشام تحت الراية الإسلامية وزحفت الجيوش

الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر وقد اشترك فى عمليات فتح مصر الزبير بن العوام زوج السيدة اسماء .

وكان سبب فتح مصر ، أنه عندما عقد الفاروق عمر بن الخطاب اجتماعا على قادته العسكريين فى (الجابيه) يناقشهم فى الفتوحات الإسلامية ، وكيفية حكم البلاد المفتوحة بالعدل ، ودون إجبار أحد على ترك دينه ، اقترح عمرو بن العاص فتح مصر ، لأنها أصبحت مأوى للهاربين من الرومان ، وقد تكون ذريعة لهم لتهديد الفتوحات الإسلامية ، ووافق عمر ، وتوجه عمرو بن العاص وتحت قيادته أربعة آلاف فارس ففتح العريش ، ومنها توجه إلى الفرما ، إلى بلبيس ، حيث هزم الجيش الرومانى المعسكر بها .

وكان أقوى الحصون الذى تجمع فيها الرومان هو حصن بابليون ، فما كان من ابن العاص أن طلب من الخليفة مددا فأمده الخليفة بثمانية آلاف جندى ، وكان على رأسهم الزبير بن العوام الذى كان له دوره الحاسم فى فتح هذا الحصن وقد ساعد أقباط مصر العرب لما وجدوه فيهم من تسامح ، وكراهيتهم الروم ، وقد أعاد عمرو بن العاص البطريرك (بنيامن) الذى كان الرومان قد نفوه إلى وادى النطرون إلى كنيسته .

وعندما أستشهد الفاروق رضى الله عنه ، وتولى الخلافة بعده عثمان بعد عفان ، عزل عمرو بن العاص عن مصر ، وولى بدله عبدالله بن سعد بن أبى السرح أخوه فى الرضاعه وأراد عبدالله بن سرح أن يحكم سيطرته على شمال إفريقية ، وأرسل له عثمان رضى الله عنه جيشا ضم بعض أبناء الصحابة من أمثال عبدالله بن الزبير ، وابن عباس .

وظهرت موهبة عبدالله بن الزبير وهو يواجه الروم فقد اقترح أن يقسم

الجيش الإسلامى قسمين . . قسم يحارب الروم، ويستريح القسم الآخر، حتى إذا ما انهك العدو، أرسل لهم بقية الجيش فلابدع الروم يعرفون طعم الراحة، وبهذه الطريقة استطاع أن يهزم الجيش الرومانى الذى كان يقوده (جريجوار) أو (جرجير) كما كان يسميه العرب . . واستطاع عبدالله بن الزبير أن يقتله فى معركة بدت فيه بطولة ابن الزبير وشجاعته النادرة.

وعاد عبدالله بن الزبير إلى المدينة فرحا بنصر الله، وفرح عثمان رضى الله عنه بهذا النصر العظيم، ودعا عبدالله ابن الزبير أن يخطب الناس ويحدثهم عن انتصارات المسلمين فى الشمال الإفريقى، وتحدث عبدالله بن الزبير حديثا يمتزج فيه قوة البيان، بقوة الإيمان، حتى أن والده الزبير قام فأحتضنه وقبله، فخورا بشجاعة ابنه فى معركة خالدة من معارك الإسلام.

وكانت اسماء فخورة بولدها . . فخورة بمواقفة وشجاعته.

فخورة بحرصه على الموت فى سبيل الدين الحنيف . . وكانت فخورة به يوم رأته أثناء الفتنة الكبرى التى اندلعت منذرة بالنذر عن قيام حرب أهلية فى الإسلام . . كانت فخورة به وهو يزود عن الخليفة التى اغتالة يد القدر والعدوان كان يتردد عنه هو والحسن والحسين، ولكن قضاء الله نفذ واستشهد ثالث الخلفاء الراشدين.

وكم كانت أحزان اسماء بنت الصديق شديدة على قلبها، وهى ترى الحياة فى المدينة قد ملأها الخوف، وسيطر عليها جو من القلق والتوتر والفتنة ترمى بشرها وشررها . . وخاصة أن أسرتها قد دخلت فى آتون المشكلة.

لقد تولى الإمام على بن أبى طالب الخلافة ورفض والد ابنها عبدالله الزبيرى مع طلحة مبايعته وثارث عليه أختها عائشة .

وبدأت الأمور تتأزم . . وكان ابنها عبدالله من أكثر الثائرين على الإمام . . مع أن الإمام على ـ رغم قرابته الشديدة ـ لأسرة الزبير بن العوام . . فالزبير أمه صفية بنت عبدالمطلب عمه الإمام على ـ إلا أن السياسة ظهرت بوجهها البشع . . فإذاهم يعادون الإمام على ، والإمام على هو البطل صاحب المعارك المشهودة فى سبيل الإسلام ، وهو أقرب الناس إلى قلب الرسول الخاتم ، وزوج فاطمة الزهراء ، ووالد سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين . . ومع ذلك فقد حارب الزبير وطلحة وعبدالله بن الزبير فى معركة (الجمل) . . الذى انتصر فيها الإمام ، وقتل فيها الزبير ، وكان عبدالله بن الزبير يحرض والده على القتال . . وهذه إحدى أخطاء عبدالله . . حتى أن الإمام على قال :

ـ ما زال الزبير رجلا منا ـ أهل البيت ـ حتى أدركه ابنه عبدالله فلفته عنا .

وقتل الزبير غدرا فى المعركة . . فقد قتله عمرو بن جرموز وهو يصلى ، وقد قرر ألا يشترك فى المعركة بعد أن أيقن على عليا على حق .

لد رأى الإمام أثناء المعركة (عائشة) رضى الله عنها وسط المعركة ، فبكى ، كيف تخرج زوجة رسول الله إلى القتال . . ووقع بصر الإمام على طلحة والزبير فناداهما . . وقال لطلحة يا طلحة . . أجئت بعُرس رسول الله تقاتل بها ، وخبأت عُرْسك فى البيت؟

وقال للزبير :

نشدتك الله . . أتذكر يوم مريك رسول الله ﷺ ونحن بمكان كذا .
فقال يا زبير :

الا تحب عليا؟

فقلت : إلا أحب ابن خالى؟ وابن عمى ، ومن هو على .

ومتى ؟

فقال لك :

- يا زبير . . أما والله لتقالنه وأنت له ظالم!

قال الزبير :

نعم أذكر الآن ، وكنت قد نسيته ، والله لا أقاتلك وعندما خرج الزبير مبتعدا عن ميدان القتال ، قتله ابن جرموز أثناء صلاته .

وقتل أيضا طلحة . . بعد أن رماه مروان بن الحكم بالرمح . وعندما جاء القاتل بسيف ابن الزبير ، وكأنه جاء بالبشرى للإمام . فبكى الإمام على وقال له :

بشر قاتل ابن صفية بالنار . .

وقبل سيفه وقال :

سيف طالما والله جلا صاحبه الكرب عن رسل الله

أنها أيام ممتلة بالأمال والألام . . بالأفراح والأحزان . . بالبطولات والفتن . . عاشتها أسماء . . كما عاشها المسلمون . . وكأنما أحس ابنها عبدالله بفداحة هذه الأحداث . . فأقبل الصلاة فيها والصيام والعبادة . واستقرق حياته .

(٦)

قالت أسماء للحجاج بن يوسف الثقفى عندما قتل ابنها عبدالله «أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك»

أنتهت الحرب الأهلية بين المسلمين باستشهاد الإمام على كرم الله وجهه، وتنازل ابنه الحسن للخلافة لمعاوية وكان معاوية حاكما قويا . . لين الجانب . . حازم ساعة الحزم . . لينا عندما تحتاج الأمور إلى لين الجانب . . حاسما عندما يحتاج الأمر إلى الحسم .

ولم يكن الحسين بن على راضيا أن تتحول الخلافة إلى تلك عضو من على يد بنى أمية .

ولم يكن عبدالله بن الزبير هو الآخر راضيا عن الحكم الأموى .

وكان عبدالله بن الزبير يعلم تماما أن الناس ترى فى الحسين خير من تميل الأسرة الهاشمية، وأمة هو الأحق بالخلافة لو طالب بها، فهو حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام، وابن فاطمة الزهراء ، سيدة نساء أهل الجنة، وابن الإمام على رابع الخلفاء الراشدين .

كان عبدالله بن الزبير يعى كل ذلك، فلم يرتفع صوته مطالبا بالخلافة لنفسه إلا بعد استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء فى عهد يزيد بن معاوية .

وبعد استشهاد الحسين، ووفاة يزيد، قرر عبدالله بن الزبير أن يتولى الخلافة، وآثره الحجازيون، وأيده أهل المدينة الذين ضاقوا ذرعا بولاة الأمويين، حتى أن المؤرخ المسعوده يقول فى مروج الذهب :

ولما شمل الناس جوريزيد وعماله وعمهم طاعة . . اخرج أهل المدينة عامله عليهم وهو عثمان بن محمد بن أبى سفيان ومروان بن الحكم، وسائر بنى أميه، وذلك عند تمسك ابن الزبير، وإظهار الدعوة لنفسه، وذلك فى سنة ثلاث وستين، وكان اخراجهم كما ذكرنا من بنى أميه وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير ، فاغتنمها مروان منهم إذا لم يقبضوا عليهم ويحملوهم إلى ابن الزبير فحثوا السير نحو الشام .

ويروى الرواة ومنهم الطبرى أن يزيد تعجب من هروب بنى أمية، وفرارهم وعدم دفاعهم عن مصالحهم فى المدينة .

لقد تساءل يزيد : الم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار .

وكان الجواب الذى سمعه :

ـ يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم فلم يكن بجمع الناس طاقة .

وجد يزيد أن الأمور تتأزم . . وأن ابن الزبير استطاع أن يلف حوله الناس . . فقد يابع عبدالله بن الزبير أهل الحجاز ومصر وجزء من اليمن وحمص وفلسطين وخرسان ولم يكن من السهل على يزيد أن يسكت وامبراطوريته تتطوى تحت أعلام ابن الزبير . . وكان لابد من المجابهة، فأرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى، واستباح هذا الجيش مدنية رسول الله ثلاثة أيام . . وأطلق المؤرخون على هذه المعكرة بموقعة الحره، ثم واصل هذا الجيش زحفه نحو مكة، وصمد لهم ابن الزبير، واكتفى مسلم بحصار مكة، بعد أن ضرب الكعبة نفسها بالمنجنيق، وأشعل فيها النار!!

وأثناء الحصار مات يزيد، وعلم ابن الزبير بذلك فهاجم عزاة المدينة وألحق بهم خسائر كبيرة، وهزيمة ساحقة .

وتتابعت الأحداث بعد ذلك . فقد حاربه الخوارج فى فارس . . واستطاع الحكم الأموى ينزع منه مصر، كما انشغل أخوه مصعب بن الزبير فى قتال خوارج البصرة :

وكان عبدالملك بن مروان قد تولى الخلافة، وقرر القضاء على ابن

الزبير، والقضاء على الخوارج، والقضاء على كل من يهدد وحدة الخلافة، وأن يعيد العالم الإسلامى تحت راية الحكم الأموى وحده.

واستطاع عبدالملك بن مروان أن يهزم جيش مصعب بن الزبير فى العراق. ثم أرسل جيشا ضخما بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى ليقضى على عبدالله بن الزبير فى مكة، الذى أتجه إليها، وأحكم الحصار حول مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق ولا طعام ولا شراب يدخل أم القرى.

وتخاذل جيش عبدالله بن الزبير..

وشعر ابن الزبير أن الأمر يكاد يخرج من يده.. والحجاج مستمر فى ضرب بيت الله الحرام بالمنجنيق.. حتى أن ابن الزبير بعث إليه ليكف عن ضرب بيت الله الحرام.. وخاصة أنه كان موسم الحج.. فلم يستطع حجاج بيت الله الحرام الطواف حول الكعبة، أو أداء المناسك بين الصفا والمروة.

قال له ابن الزبير:

ـ اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك فى شهر حرام، وبلد حرام، وقد قدمت وفودا الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا. وأن المنجنيق قد منعهم عن الطواف، فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة.

واستجاب الحجاج لهذا النداء.

وبعد موسم الحج.. بدأ الحجاج من جديد يقذف الكعبة بأحجارة، وحدث أن برقت السماء بالرعد، وقتل عدد من جيش الحجاج، ولكن بدلا من أن يرتدع الحجاج ويكف عن بيت الله الحرام، أمر جنوده أن

يضربوا بيت الله الحرام بكل قوة ، وأن ما حدث ليس غضب من الله على جند الشام ، ولكن هذه ظاهرة طبيعية تأتى فى فصل الشتاء .

وأمام هذا الضرب المستمر ، تخاذل جيش ابن الزبير ، وطلب بعضهم الأمان من الحجاج بن يوسف الثقفى ، كما خرج عدد كبير من أهل مكة طالبين الأمان من الحجاج ويقول الرواة أن ابناء عبدالله بن الزبير حمزة وخبيب تقدما للحجاج طلبا للآمان!

أصبح الموقف فى غاية السوء . . حتى أن عبدالله بن الزبير طلب من ابنه (الزبير) أن يذهب هو الآخر طلبا للأمان كما فعل أخويه ، ولكن الزبير الابن قرر الموت مع والده وحاول أخوه عروة ابن الزبير أن يأخذ الأمان لعبدالله ، ولكن عبدالله لم يساوم فى قضية آمن بها طوال حياته . . بأنه أحق بالخلافة ، وأن بنى أمية اغتصبوا الخلافة ، وحولها إلى ملك عضوض ، ملك يرثه الأبناء عن الآباء ، ونسوا مبدأ الشورى وهو من أهم مبادئ الحكم فى الإسلام فقرر أن يواجه قدره .

وتوجه إلى أمه اسماء بنت أبى بكر .

وكانت اسماء قد بلغت من العمر مائة عام . .

يقول الرواه أنها كانت ما تزال تحتفظ بشباب القلب والروح . . شعرها أسود . . أسنانها لم تسقط منها سن واحد . . رابطة الجأس .

ذهب إليها ابنها عبدالله . . قال لها :

ـ يا أمة . . خذلنا الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبقى معى إلا اليسير . ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار . وقد رضى (بنو أمية) أن يمنحونى ما أردت من الدنيا إن سألتهم فما رأيك؟

قالت أسماء بكل الشجاعة والإيمان المعروفان عنها :

ـ الله الله يا بنى

أنت والله أدرى بنفسك . فإن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامضى عليه، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . . أهلكت نفسك ومن معك .

وإن قلت أنى كنت على حق فلما وهن أصحابى حنعفت عزيمتى، فليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .

كم خلودك فى الدنيا؟

التقل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير .

فوالله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة السوط فى ذل!

وتقدم عبدالله نحو أمه، وقبل رأسها وقال :

هذا والله رأيى والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا، ومار كنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه، ولكنى احبت أن أعلم رأيك فزيدبنى بصيرة مع بصيرتى .

فانظرى يا أمة فإنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة . . ولم يجر فى حكم الله ولم يغذر فى أمان . ولم يتعمد ظالم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم من عمال فرضتى به ليل أنكرته .

ولم يكن شيء آخر عندى من رضى ربى .

اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى أنت أعلم بى ولكن أقوله

تعزيه لأمى لتسلوا عنى وأخذت أسماء تمسح رأس ابنها الغالى فى حنان غامر وهى تقول :

إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى وإن تقدمتك . نفى نفسى أخرج حتى انظر إلى ما يصير إليه أمرك .

فقال لها عبدالله :

ـ جزاك الله يا أمه خيرا . . فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد .

قالت اسماء :

ـ لا أدعه أبدا . فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق .

ثم قالت :

اللهم ارحم طول ذلك القيام الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة وبر بأبيه وبى . اللهم قد ساعته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبتى فى عبدالله ثواب الصابرين والشاكرين .

ويقول الرواة :

أنها أى اسماء احتضنت ابنها وقبلته ، ولكن يدها وقعت على درعه تحت ملابسة .

سألته :

ـ ما هذا صنيع من يريد ما تريد؟!

فقال :

مالبستها إلا لأشد مقتك .

قالت :

انها لا تشد متنى .

ونزع عبدالله الدرع ورماه بعيدا ، متجها ليحارب معركتة الأخيرة .

كان كالأسد الهصور فى جسارته كعهده دائما فى القتال ، ويتداعى إلى ذهنه قول أنه اسماء عندما سألها قبيل المعركة : أنه يخشى أن يمثل القوم به . . فقالت له :

ـ يا بنى ان الشاة لا يضرها السلخ بعد ذبحها . فامضى على بصيرتك واستعن بالله .

ظل عبدالله يقاتل قتال الأبطال وقد حطب من بقى معه ، مستبسلان القتال حتى الموت . . قال لهم :

يا آل الزبير . . لوطبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله . فلا يرعبكم وقع السيوف ، فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم .

غضوا أبصاركم من البارقة وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عنى ، فمن كان سائلا عنى فأنى فى الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله .

وأثناء هجومه على جيش الشام ، أصابه حجر فى جبينه ، فقال :

يارب إن جنود الشام قد كثروا

وهتكوا من حجاب البيت أستارا

يا ربى إنى ضعيف الركن مضطهر

فاهبت إلى جنودا منك أنصارا

وتكاثر عليه الاعداء حتى سقط شهيدا .

وكان استشهاده فى ١٤ جمادى الأول سنة ٧٣هـ .

لم يكن الأمر سهلا على أهل مكة ، إنهم يعرفون عبدالله زاهدا . . متقشفا . . مجاهدا ، بسبقه طوال حياته .

ويعرفون أن والده الزبير بن العوام هو حوارى الرسول عليه الصلاة والسلام وأحد المبشرين بالجنة .

ويعرفون أن أمة ذات النطاقين اسماء بنت أبى بكر الذى قال عنها رسول الله ﷺ : «سوف يبدلها الله بنطاقها نطاقين فى الجنة» .

والحجاج بن يوسف الثقفى يعرف منزله ابن الزبير ومكانه بين قومه ، فخطب الناس من فوق المنبر قائلا :

ألا أن ابن الزبير كان من أحجار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرمة الله ، ولو كان شىء يمنع العصاه لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئة ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

وأمر الحجاج بصلب جثمان عبدالله بن الزبير حتى يخيف الناس ويرضى الخليفة عبدالملك بن مروان .

ويقول الرواة أن أسماء ذهبت إلى الحجاج يطلب منه دفن جثمان ابنها ، وأنه رفض ، فقالت له :

ـ أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

يخرج من ثقيف كذاب ومبير ، فأما لاكذاب فهو المختار ، وأما المبير فما أظنك إلا هو .

قالوا بعض الرواة الأخرون : أنها لم تذهب إليه ، ولم تعره النفاتا ، بل أنها تقدمت وهى الطاعة فى السن إلى حيث الجسد المصلوب ، وتوجهت إليه ، والحزن يعتصر قلبها ، وقالت :

ـ أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

ويقول الرواة أيضا أن الحجاج قال لها :

ـ كيف رأيتنى صنعت بابنك؟

قالت له :

أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك أخرتك .

أحداث مروعة مفجعة . . تحملها قلب أسماء بنت الصديق . . لقد تحملت موت ولدها . . الذى كان مفخرة من مفاخرة الفروسية فى الإسلام ، وكانت له أدواره فى الفتوحات الإسلامية ، والذى أصبح خليفة لأهم الأقطار الإسلامية . . تحملت أسماء كل ذلك بكل الصبر والشجاعة التى عرفت عن الصديق وأبناؤه .

وعندما علم الخليفة بما حدث لعبدالله أمر يدفنه ، فقامت اسماء بأخذ جثة ابنها الحبيب وكانت بجهازه ، وورائه التراب . . ولم تلبث أن لحقت به . . مسجلة فى تاريخ البطولة والأمومة والشجاعة النادرة ، ما كان مضرب الأمثال عبر كل عصور التاريخ .

(٧)

قال عمر بن عبدالعزيز عن عبدالله بن الزبير:

«لو رأيته.. ما رأيت مناجيا ولا مصليا مثله»

وتبقى كلمة

لقد عشنا مع شخصية بالغة الثراء . .

شخصية اسماء بنت أبى بكر .

ومن خلال هذه الشخصية رأينا تأثير والدها أبى بكر الصديق عليها، وما تركه فى أعماتها من بصمات . . كما رأينا تأثيرها على أولادها . . وخاصة عبدالله بن الزبير لأنه كان شخصية فريدة فى شجاعة وإيثاره الجهاد، كما كان لوالده الزبير بن العوام وهو أحد المبشرين بالجنة وحوارى الرسول الكريم ـ كان له تأثيره على هذه الأسرة الكريمة .

كما أن خالته هى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها والتى كانت تكنى باسمه . . فكان من أحب الأشياء إلى نفسها أن ينادنها بأم عبدالله .

وقارئ سيره هؤلاء سوف يتوقف كثيرا أمام حكمة التاريخ .

فالذى حدث فى عصر الرسول وعصر الراشدين وفى ظل الخلافة الأموية من الممكن أن يحدث فى أى عصر من العصور .

المهم الاستفادة من دروس التاريخ .

فعندما نحكى مواقف اسماء أو أبنائها أو زوجها أو أخيها، أو والدها العظيم . . فليس الهدف سرد الأحداث، وقص الحكايات . . إنما الهدف هو الوقوف عند النفوس صاحبة الهمة القوية .

ومواقفها من الحياة

ومواقف الحياة منها

وتأثيرهم فى الأحداث

وتأثير الأحداث فيهم

وكيف استطاعوا أن يسبحوا ضد التيار ، وضد الأمواج العاتية . . لا يحيدون عن المبادئ والقيم والمثل العليا التى نادى بها الدين الحنيف . . وكيف أرتفعوا فوق المصالح الشخصية فى سبيل ما يعتقدون أنه الحق . . ثم كيف تتقلب المصالح ويسير الناس وراء هذه المصالح ، حتى لو حاربوا أقرب الناس إلى الله ورسوله .

كما تستوقفنا فى هذه السيرة عظمة السيدة اسماء . . إنها وقد تطاول بها العمر . . ووهن منها الجسد . . وبلغت المائة من عمرها . . لم تختز أنصاف الحلول ، فعندما ذهب إبنها إليها طالبا النصيحة ، والموت يتربص به الدوائر ، ولا حل لمشكلته إلا الرضوخ لمطالب المنتصر ، والمنتصر يطلب مبايعة حكام بنى أمية ، إيثارا للسلامة . . وكان من الممكن لعبدالله بن الزبير أن يناور سياسيا .

وكان من الممكن أن ينجو من الموت بالتنازلات المطلوبة منه فى ظروفه الصعبة تلك .

وكان من الممكن لأسماء كأم لها قلب يخفق بالأمومة أن تطلب من ابنها بعضا من التنازلات التى تفرضها لعبة السياسة .

ولكن السيدة اسماء التى عايشت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو يواجه تسلط ، وصلف أهل الشرك والنفاق ، ولم تلن له بعزيمة ، ولا قناة وكان يقول كائن الحق حتى لو صادمت هوى الناس . .

ما كان لسيدة عاشت فى كنف النبوة إلا أن تكون صورة مجسدة للمبادئ والقيم والأخلاق الراقية .

وإنسانة عاشت فى كنف والدها الخليفة العظيم أبو بكر الصديق ، والذى برزت قوة إيمانه فى كل ما مر برسول الله من أحداث ، وكان وزيره . . وصديقه ومستشاره . . هذا الخليفة التى ظهرت قدراته السياسية الخارقة يوم تولى الخلافة ، وتصدى لأمواج من المحن والأزمات . . وصمد . . ونجح . . وكون دولة ، ونواة امبراطورية إسلامية عظمى . . ما كانت لابنة الصديق إلا أن تكون صورة من والدها العظيم فى شجاعته وشموخه . . ومواقفه . . حتى أن أعظم رسل السماء قال عنه :

مالأحد عندنا يد إلا وكافأناه إلا أبا بكر فإن له عندنا يد يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نعنى مال أحد قط ما تفعنى مال أبى بكر .

وقال عنه أخر رسل الله تعالى :

ـ ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر إلا أن يكون نبى .

فكان من الطبيعى أن تكون السيدة اسماء صورة من أبيها ، كما كانت أختها عائشة صورة من أبيها : ذكاءا وشجاعة ، وإيمانا .

وكان من الطبيعى أن يكون أحفاد الصديق صورة من جدهم العظيم . . اعتدادا بالنفس . . وطموحا إلى ما عند الله . . وقد تجسد ذلك فى ابن اسماء . . عبدالله بن الزبير . . كان الصديق المثل الأعلى لهذه الأسرة الكريمة .

وهل يمكن أن ينسى التاريخ خطبة الصديق فى الناس ، يوم وضع نفسه فى المكان الذى يريد من الناس أن يضعوه فيه قال لهم :

«فإنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره، ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه. ألا وإنكم إن كلفتمونى بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به.

كان رسول الله ﷺ عبد اكرمه الله بالوحى، وعصمه به، ألا إنما أنا بشر ولست بخير منكم فواعدونى، فإذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى، وإن رأيتمونى زغت فقومونى، وإن لى شيطانا يعترينى، فإذ رأيتمونى غضبت فاجتنبونى».

كلمات رائعة.. دستور لكل حاكم ينبغى ألا يغضب رعاياه، فلا يصدر حكما أثناء غضب، ولا يستعلى على أحد، ولا يطلب لنفسه عصمة، ولا تبريرا لخطأ أو خطايا.. ومن هنا نقم عبدالله بن الزبير على معاوية والأمويين عموما عندما رآهم تحولوا إلى ملوك.. لهم حراس.. وحشم، وكراسى الملك.

وكان معاوية يقول عن نفسه أنه أول الملوك! فكان من الطبيعى أن يثور عليه رجل كعبدالله بن الزبير.

ولم ينس عبدالله بن الزبير يوما أنه سليل أسرة عريقة فى إيمانها وخوفها من الله، أسرة رفعها نسبها للنبى عليه الصلاة والسلام، وقربها منه إلى درجة لا يصل إليها أصحاب المال ولا الجاه.

وما أكثر ما جلس ابن الزبير مع معاوية بن أبى سفيان، ودارت بينهما مناقشات، إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى اعتداد ابن الزبير من نفسه.

فى أحد هذه الجلسات قال معاوية لابن الزبير:

ـ تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق منى!

فقال عبدالله بن الزبير :

ـ لم لا أكون أحق به منك يا معاوية . وقد اتبع أبى رسول الله ﷺ على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر .

فقال له معاوية :

غلطت يا ابن الزبير ، وبعث الله ابن عمى نبيا فدعا أباك فأجابه ، فما أنت إلا تابع لى ضالا كنت أو مهديا .

وواضح من هذا الحوار مدى اعتداد عبدالله بسابقه أبيه للإسلام ، بينما برز دهاء معاوية الذى اعتبر الرسول ابن عمه على أساس أن بنى أمية أبناء عمومة بنى هاشم .

* * *

وقد كان معاوية بن أبى سفيان رجلا حصيفا . . علمته الأيام الكثير ، خاصة أنه سليل أسرة كانت تحلم بالمجد والسيادة وهى أسرة أبو سفيان بن حرب ، كما أنه عمل فى السياسة منذ خلافة عمر بن الخطاب ، مرورا بعصر عثمان وعلى بن أبى طالب ، حتى دانت له الخلافة ، واستطاع أن يجمع خيوط السلطة كلها فى يده . .

ومن هذه الخبرة الطويلة العريضة ، كان يعلم أن الخطر على الحكم الأموى ، يكمن فى الحسين بن على ، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر . .

ومن هنا فقد حرص معاوية أن يأخذ البيعه لابنه فى حياته ، بارتحاله إلى الحجاز ، ومقابلة أصحاب الرأى فيها ليمهد الأمر لابنه يزيد من بعده .

كان خبيرا بأمور السياسة، ومن هنا فقد حرص أن يوصى ابنه بهذه الوصية التى أوردها الطبرى :

أنظر أهل الحجاز، فإنهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غلب .

وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فأفعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف .

وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعينيك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أحببتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإننى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير .

فإما أن عمر فرجل قد وقده الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك .

وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وأن له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابه من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركينه حتى يخرجوه .

فإن قدرت عليه فأصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

وأما ابن الزبير خب حنب، فإذا شخص لك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن عقل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت .

هذه الوصية تجعلنا أمام إنسان محترف سياسة . . شديد الدهاء . . فهو يحذر ابنه يزيد من ثلاث :

الحسين بن على . . فإن خرج عن ملكه فعليه أن يراعى نسبه من

رسول الله ويصفح عنه . . وهذا ما حدث بالفعل فقد خرج الحسين على يزيد، إلا أن يزيد لم يراع وصية والده . . ولم يعف عنه، بل أن الحسين قتل ومثّل به في كربلاء!

ونصحه أن يأخذ خذره من عبدالله بن عمر . . إلا أن ابن عمر لا يخشى منه لأنه ليس لديه اهتمامات سياسية، ولا أطماع في ملك أو رئاسة لأنه مشغول عن كل ذلك بالعبادة والتقرب إلى الله .

أما عبدالله بن الزبير ففي نظر معاوية رجل ماكر، ولكن إن خرج على يزيد، وطلب الصلح فعليه أن يفعل منه ذلك ويحقن الدماء .

ولكن هذه النصحية لم يأخذ بها يزيد . . فقد هوجمت المدينة ومكة في عهده، إلى أن استشهد عبدالله بن الزبير في عصر عبدالملك بن مروان على يد جيش الحجاج بن يوسف الثقفي .

وكان من الممكن لخلافة ابن الزبير أن تستمر ويكتب لها النجاح، لو أن عبدالله بن الزبير، اتخذ خطوات أكثر إيجابية للحفاظ عليها، ومن الأسباب التي يوعز المؤرخون إليها سبب سقوط خلافته .

أنه ظل في مكة التي لا تصلح لتكون عاصمة سياسية، حيث أن مواردها الاقتصادية والبشرية قليلة، وأنه كان عليه أن ينقل عاصمة ملكه إلى العراق، حيث الإمكانيات الاقتصادية والبشرية أكثر كما أنه كان بخيلا مما أثر على أصحابه، فلم يكن سخيا أو كثير العطاء، بجانب أنه أسرف في شدته في معاملته لمن لم يؤيده من بني هاشم، كما أن الخوارج لم يؤيدوه لأنه لم يعتنق أفكارهم . .

ومن أسباب فشلة كما يقول المؤرخون أن أخاه مصعب ابن الزبير قد

أسرف فى سفك الدماء، بعد قضائه على ثورة المختار بن عبيدالله الثقفى فى الكوفة، فقد سفك من دماء أهل الكوفة ما يقدره المؤرخون بستة آلاف شخص فى يوم واحد سنة ٦٧هـ.

مهما يكن من شيء فقد تقلد عبدالله بن الزبير الخلافة عام ٦٤، وظل بها إلى أن قتل عام ٧٣هـ. أى أن دولته استمرت حوالى تسع سنوات.

ولا شك أن والدته كانت وراء نجاحه.. فقد ربته تربية إسلامية خالصة.. ربته على الشجاعة والإباء وكراهية الضيم.. كما ربته على حسن العبادة، حتى قيل عن عبادته الكثير. فكان كثير الصيام.. كثير القيام والتهجد لله.

حتى قال الرواة عنه كما روى ابن نعيم فى الحلية بسنده إلى ابن المنكدر قال:

ـ لو رأيت ابن الزبير يصلى لقلت غصن شجرة تصفقها الريح. إن المنجنيق ليقع هنا وهنا ما يبالى به.

وقال عنه عمر بن عبدالعزيز:

لو رأيته.. ما رأيت مناجيا ولا مصليا مثله.

ومعروف أن اسماء كانت قد طلقت فى المدينة من الزبير والروايات كثيرة عن أسباب هذا الطلاق.. وقيل فى ذلك روايات غريبه أغلبها من وضع الرواة.. فليس من المعقول أن ابنها عبدالله كان يرفض أن تعاشر أباه كزوجة وهى أم عبدالله!.. وهذا منطق ضد الشرع والدين، وعبدالله كان أعلم الناس بشرع الله.

وقيل أن الزبير ضربها، فاستغاثت بابنها، فأقبل عبدالله ليفض

المشاجرة، ولكن والده قال له أمك طالق إن دخلت على فقال له عبدالله.

ـ اتجعل أمى عرضة ليمينك!

ودخل عبدالله وحال بين أبيه وضرب أمه!

روايات متناثرة فى كتب التراث. . ولكن الحقيقة أن اسماء طلقت، وعاشت بقية حياتها مع ابنها عبدالله:

وأولادها هم:

عبدالله، وعروة، وخديجة الكبرى ـ أم الحسن، عائشة والمعروف أنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين عاما. . وكانت من السابقين للإسلام، فقد أسلمت وعمرها خمسة عشر عاما.

ويقول الرواة أنها روت عن رسول الله ﷺ سته وخمسين حديثا، اتفق الشيخان منها على أربعة وعشرين حديثا، وانفرد كل منهما بأربعة.

ويقال أيضا أنها كانت تجيد تفسير الأحلام.

ولا تذكر اسماء بنت أبى. . إلا وبذكر والدها الصديق الذى لخص حياته وكفاحه الإمام على كرم الله وجهه وهو يرثيه: رحمك الله يا أبا بكر، وكنت والله أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدهم يقينا وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا، صدَّقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله فى كتابه صديقا.

«والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» .

يريد محمدا ويريدك، وكنت والله للإسلام حصنا، وعلى الكافرين عذابا، ولم تغلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجن نفسك، كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف .

كنت كما قال رسول الله ﷺ (ضعيفا فى بدنك، قويا فى أمر الله، متواضعا فى نفسك، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض، كبيرا عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك» .

هذه هى أسماء . . زوجة مباركة . . من شجرة مباركة .

سيظل اسمها رمزا لكل المبادئ النبيلة، والفضائل . . لقد عاشت حياتها . . مؤمنة بربها . . مضحيه فى سبيل إسلامها بكل ما تملك . . وقد ماتت بعد استشهاد ابنها بفترة قصيرة . . وستظل سيرتها نور هداية لكل الأجيال . . التى تقدر دورها . . كامرأة مسلمة . . وكأم عرفت كيف تربى أبناءها على التضحية والفداء .



أهـــم المراجـــع

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية الصحيحة

الخلفاء الراشدون : عبد الوهاب النجار

عبدالله بن الزبير : د. على حسنى الخربوطلى

مع الأبطال : محمد رجب البيومى

الصديق أول الخلفاء : عبد الرحمن الشرقاوى

موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى : د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف (العصر الأموى).

فتوح البلدان : البلاذرى

وفيات الأعيان : ابن خلكان

على وبنوه : د. طه حسين

نساء خالدات : أنور أحمد

عبقرية الصديق ـ العقاد

من تاريخ الصحابة : محمود النواوى

تراجم وبطاقات

سيرة النبى العربى : أحمد التاجى

الحرب الأهلية فى صدر الإسلام : عمر أبو النصر

(الإمام على وخصومه)

خلافة الصديق : مأمون غريب

كتب للمؤلف

مشاهد من حياة الرسول مركز الكتاب للنشر
خلافة أبو بكر مركز الكتاب للنشر
خلافة عمر مركز الكتاب للنشر
خلافة عثمان مركز الكتاب للنشر
خلافة على مركز الكتاب للنشر
حجة الإسلام الإمام الغزالى مركز الكتاب للنشر
المهاجرون إلى الله مركز الكتاب للنشر
الإمام الحسين . . حياته واستشهادة مركز الكتاب للنشر
العوام الخفية والقرآن الكريم مركز الكتاب للنشر
أولو العزم من الرسل مركز الكتاب للنشر
أبطال الجهاد فى الإسلام مركز الكتاب للنشر
مع مشاهير الفكر والأدب دار المعارف
حديث الروح مع الشيخ الشعراوى دار المعارف
هؤلاء ورحلة الذكريات مطبعة مصر
بيوت الله دار غريب
المبشرون بالجنة دار غريب

الفهـــــــرس

